الفصل الثاني

- اخلاق الفرد نحو نفسه .
- اخلاق الفـرد نحو مجتمعه .
- صـلة الزوجية .
- الأسرة : صلة الأولاد بالوالدين .
- الأسرة : صلة الأقارب .
- الجماعة وتنظيم علاقة الفرد فيها .
- مبادىء انسانية من حياة الرسول .
- التضافر والتعاون .
- التـواد .
- رعاية الجار .
- المـروءة .
- انكار الذات .
- العزة والكرامة .
- فضيلة الصبر .
- الصبر عند الشدة .
- الصراحة والصـدق .

أخلاق الفرد نحو نفسه

أود أن أعرض فى هذه الصحائف للأخلاق القرآنية فى اتصالها بالفرد ، والأسرة ، والأمة ، والعالم الإنسانى كله ، بأن أوضح النظرة التى قامت عليها أخلاق القرآن إلى هذه الوحدات ، وكذا الغاية التى سعت إلى تحقيقها فى دائرة كل وحدة منها .

وأخذاً بالمنهج الذى أجملته الآن فى عرض أخلاق القرآن الكريم نتحدث هنا عن نظرة القرآن إلى الإنسان كفرد ، ثم عن الغاية التى قصد إلى تحقيقها فى جانبه من وصاياه الأخلاقية :

١ — يقول جل شأنه فى وصف الإنسان ، وفى تحديد نظرته إلى طبيعته الإنسانية : « واللهُ أخرجَكم مِن بُطون أمَّهاتِكم لا تعلَمونَ شيئاً ، وجعَلَ لكُمُ السَّمعَ والأبصارَ ، والأفئِدَةَ ، لعلَّكُم تشكُرونَ[1] » . ويقول فى آية أخرى : « اقرأْ باسْمِ ربِّكَ الذى خلَق . خلَقَ الإنسانَ مِن علَقٍ . اقرأْ وربُّكَ الأكرَمُ . الذى علَّمَ بالقلَمِ . علَّمَ الإنسانَ ما لم يعلَم . كلا إنَّ الإنسانَ ليطغَى . أن رآهُ استغنَى[2] » . فذكر الله سبحانه فى الآيتين الكريمتين معاً ثلاث حقائق : الحقيقة الأولى :

أن الإنسان يخلق من غير سابق توجيه معين يسير به فى هذه الحياة .

الحقيقة الثانية : أنه زود بمصدرين للمعرفة : المصدر الأول ما فى طبيعته من حواس فى مقدمتها السمع والبصر ، وما فى نفسه من فؤاد وبصيرة وحكمة ، وهو المصدر الذى أشارت إليه الآية الأولى . والمصدر الثانى هداية الله وتوجيهه فى كتابه المنزل ، وهو ما أشارت إليه الآية الثانية وصرحت به أيضاً أمثال هذه

---

(١) النحل : ٧٨ (٢) العلق : ١ — ٧

الآية : «يأيها النّاسُ قد جَاءَتْكُم مَوْعِظةٌ مِن ربكُم ، وشِفَاءٌ لما فى الصدُورِ ، وهُدَى ورَحمةٌ للمؤمنين(١)» .

الحقيقة الثالثة — أنه مع وجود هذين المصدرين لتزويد الإنسان بالمعرفة والتوجيه السليم فى الحياة — الإشارة إلى أن الإنسان قد يميل عن اتباعهما وبذا يقل شعوره بوجودهما فى دائرة حياته ، ويبعدها لذلك عن مجال النعم التى يجب أن يشكر عليها الله . ويشير إلى هذا التعقيب فى الآية الأولى ، قول المولى سبحانه «لعلكم تشكرون» . . وفى الآية الثانية : « كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى » . فقلة شكر الإنسان المولى جل وعز أو طغيان الإنسان ، ونسيانه فضل المنعم عليه كلية لا يكون إلا من مَيْلٍ ، أو انحراف عن اتباع الهدى والرشد فى التوجيه المنبعث من عقل الإنسان وحواسه وكتاب الله المنزل .

والسبب فى ميل الإنسان أو انحرافه عن هذين المصدرين فى التوجيه أن الحياة يدور فيها أمران متقابلان : زخارف الدنيا ومفاتنها ، أو القيم الأساسية الخالدة فى الحياة فيها . والاستمتاع بزخارف الدنيا ومفاتنها استمتاع عاجل ، ولكنه مؤقت ، والاستمتاع بالقيم الحقيقية استمتاع مؤجل ، ولكنه دائم . فبعض الناس يجذبه الأمر العاجل ، وهو بطبيعته سهل الانقياد . والبعض الآخر منهم يؤثر الآجل من الأمرين ويتحمل مشقته . وهو الذى يسلك فى عداد المكافحين الصابرين فى كفاحهم . ويصور أمر الفريقين قول الله تعالى : «فَخَرَجَ عَلى قَومِه فى زينتِهِ . قال الذين يُرِيدُونَ الحياةَ الدنيَا : ياليْت لنَا مثلَ ما أُوتِى قارُون ، إنهُ لذو حظٍّ عظيم . وقالَ الذين أُوتُوا العِلم : ويلكُم ، ثوابُ اللهِ خيرٌ لمنْ آمَن ، وعَمِلَ صالحاً ولا يلقاها إلا الصّابِرُون(٢) » .

ولكن مع وجود هذا المغرى الفاتن فى الحياة الذى يجذب إليه فريقاً من

---

(١) يونس : ٥٧

(٢) القصص : ٧٩ ، ٨٠

الناس طواعية وفى يسر — فإن الله قد كفل الوقاية من فتنته ، وجعل سبيل ذلك تذكره سبحانه والانتجاء إلى هدايته . يقول جل شأنه : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ ، وَنَعلَمُ مَا تُوَسوِسُ بِهِ نَفسُهُ ، وَنَحنُ أَقرَبُ إِلَيهِ مِنْ حَبلِ الوَرِيدِ » . ومعنى ذلك أن الله ليس بعيداً عن الإنسان إذا ما التجأ إليه وطلب نصرته عند خشيته التأثر بزخرف الحياة ، وعندما تتردد النفس فى الإقدام على الافتتان بها .

* * *

خلق الله الإنسان إذن غير حامل معه توجيهاً سابقاً ومعرفة خاصة مصاحبة له ، ولكنه زوده بمصدرين للمعرفة يستطيع أن يسير فى ضوئهما فى حياته الخاصة والعامة ، على هدى وبصيرة : مصدر ركب فى طبيعته وهو عقله أو فؤاده وحواسه ، ومصدر آخر أوحى به رب الخلق أجمع لهداية الإنسان فى كونه ، وهو كتابه .

وهداية الله للإنسان فى كونه بالنسبة للفرد يجب أن تكون لصالحه . لأن الله غنى عن العالمين . وصالح الإنسان لا يتحقق فى ازلافه فى الحياة ليستمتع بها ما وسعه الاستمتاع ، ولا بأنه يراه وسيلة من وسائل تحقيق المتعة . لأن تلك غاية حيوانية ، لا تجعل الإنسان يعيش كإنسان ، وأن تكون لحياته طابع الإنسانية .

وفى آداب القرآن ، وفيما رسمه للفرد كطريق لتصرفه الفردى كى يحقق به صالحه الخاص ، نجد أن هذه الآداب تتركز فى أربع جوانب وهى كل ما يتصور فى دائرة الإنسان كفرد .

الجانب الأول : فيما يتصل بكلام الإنسان وتعبيره ومنطقه . ففى قوله تعالى : « وَقُل لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحسَنُ إِنَّ الشَّيطَانَ يَنزَغُ بَينَهُمْ ، إِنَّ الشَّيطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا(١) » يحثه على التعبير بالحسن . ورتب عليه لو أخذ

---

(١) الاسراء : ٥٣

الإنسان به نفسه تفادى النزاع والخصومة . وفى قوله : « وإذا قُلتم فاعدِلوا ولو كانَ ذَا قُربَى[1] » .. أوجب عليه الاتزان فى القول ، والعدل فى المنطق بما بين الناس عند تحديد أمورهم . وأوجبه مهما كانت الدوافع التى من شأنها أن تميل بالإنسان وتنحرف به عن العدل والاتزان : « ولو كان ذا قربى » .

الجانب الثانى : يتعلق بسلوك الإنسان ، وقد رغب اليه أن يكون سلوكه مهذباً وهو السلوك الذى يبعد صاحبه عن إيذاء غيره ، وإيذاء نفسه . يقول الله جل شأنه « ولا تُصَعر خَدكَ للناسِ ، ولا تمشِ فى الأرض مرحاً[2] » .

ويقول : « واقصِدْ فى مَشيِكَ ، واغضُضْ مِن صَوتِكَ ، إنَّ أنكرَ الأصواتِ لصَوتُ الحَمِيرِ[3] » ..

ويقول : « يأيُّها الذينَ آمنوا ، إذَا قِيلَ لكُم تفَسَّحُوا فى المجالِسِ فافسَحُوا[4] » ..

ويقول : « فإن أَمِنَ بعضُكم بَعضاً فليُؤَدِّ الذى اؤتُمِنَ أمانَتهُ[5] » ..

ويقول : « ولَا تَنسَوا الفَضلَ بَينَكم[6] » ..

ويقول : « ولمن صبر وغَفرَ ، إن ذَلِكَ لمِنْ عَزمِ الأمور[7] » .

والجانب الثالث : ما يرتبط باطمئنان نفس الإنسان ، واستقراره فى الحياة وذلك بأن يتذكر الله ، على أنه وحده الذى يركن إليه ، وأنه وحده الذى يستطيع دفع الملمات ، وأنه وحده الذى لا يخلف وعده فيما وعد به المؤمنين الصابرين . يقول جل شأنه : « الذينَ آمَنُوا وتَطمَئِنُّ قلوبُهم بذكرِ اللهِ ، ألاَ بذِكرِ اللهِ تطمئنُّ القلوبُ[8] » .

---

(1) الأنعام : ١٥٢
(2) لقمان : ١٨
(3) لقمان : ١٩
(4) المجادلة : ١١
(5) البقرة : ٢٨٣
(6) البقرة : ٢٣٧
(7) الشورى : ٤٣
(8) الرعد : ٢٨

الجانب الرابع : فيما يتصل بموقف الإنسان الفرد من أحداث الحياة فى جماعته التى يتوقف عليها تحديد مصيرها . فلم يرض عن أن يكون موقف الإنسان منها موقف المستغل ، والمتردد ، وموقف النفعى الأنانى ، يخذل جماعته وأمته فى سبيل نفعه وأنانيته ، ولا يحقق فى الحياة بعمله كفرد إلا ما يعود عليه وحده . يقول الله سبحانه وتعالى : «وإنَّ منكم لَمَنْ ليُبَطِّئَنَّ : فإنْ أصابتكم مُصيبةٌ ، قال : قد أنعمَ اللهُ علىَّ ، إذْ لمْ أكن معهمْ شهيداً . ولئن أصابكم فضلٌ من الله ليقولنَّ : — كأن لمْ تكن بينكمْ وبينهُ مودَّةٌ — يا ليتنى كنتُ معهمْ فأفوزَ فوزاً عظيما»[1] .

وصاحب هذا الموقف فى القرآن ليس ممن يلبون النداء لأحداث الجماعة التى يتوقف عليها مصيرها ، نصراً أو هزيمة .. سعادة أو شقاء .. ليس ممن أطاعوا الله والرسول على نحو ما يقول الله تعالى : « ومَن يُطعِ اللهَ والرسولَ فأولئكَ مَعَ الذينَ أنعمَ اللهُ عليهم مِن النبيينَ والصدِّيقينَ والشهداء ، والصالحينَ ، وحسُن أولئكَ رفيقاً[2] » .

* * *

والقرآن الكريم فى وصاياه الأخلاقية للفرد نحو نفسه يبغى أن يكون إنساناً مهذباً فى قوله .. مطمئن النفس والبال فى حياته .. إيجابياً فى الحياة بعمله ، ولكن بحيث لا يقصر إيجابيته على منفعته وحده . والمؤمن بالإسلام هو ذلك الإنسان .

(١) النساء : ٧٣ (٢) النساء : ٦٩

أخلاق الفرد نحو مجتمعه

الإنسان كائن من كائنات هذه الحياة الدنيا ، ويعيش فى هذه الحياة نفسها ، ويسعى فيها ، ويرتبط بما فيها مما من شأنه أن يكون له تأثير عليه ، وبحيث لا يستطيع هو أن ينفك عنه انفكاكاً تاماً .

وكائن حاله هذه الحال ليس من المستطاع أن يكلف تكليفاً يجازى عليه باعتزال هذه الحياة ، فيثاب باعتزالها تماماً ، ويعاقب على تعلقه بها أدنى تعلق . والمستطاع إذن أن يباح له تحصيل ما فيها ، حتى يتنفس فى جو غير مصطنع ، ويعيش فى أسلوب ينسجم مع طبيعته . والمنطق إذن أن يستمتع بالحياة الدنيا وزينتها ومفاخرها من مال وولد ، وجاه .

ولكنه ، كإنسان أيضاً له كذلك من طبيعته لون آخر من الحياة يميزه عن حياة الحيوان والكائنات الأخرى التى تشاركه فى النمو والحركة ، ويتميز هو عنها بالمنطق والإدراك . هذا اللون من الحياة هو حياة الجماعة ، أو الشعور النفسى بالمشاركة وتبادل الإحساس بالوجود المشترك مع غيره من نظرائه فى الطبيعة والتكوين ، وهم بنو الإنسان .

أمران طبيعيان للإنسان ، تدفع إليهما طبيعته ووجوده الخاص وهما : أولا — أن يعيش فى الحياة ليحفظ لنفسه البقاء . وثانياً — أن يشارك غيره من نظرائه فيما يوجد فيها من مقومات العيش ، وفيما يتخذ من وسائل لتحصيله .

وارتباطه بهذه الحياة إلى هذا الحد يدفعه إلى تحصيل أسباب العيش فيها . وشعوره الطبيعى بمشاركة غيره له يدفعه إلى محاولة الملاءمة بين هذين الجانبين الطبيعيين فيه : بين أن يعيش ليحفظ ذاته .. وبين اضطراره لأن يشاركه غيره فى مقومات العيش

وحدها،وعن طريقها يخضع الضعيف للقوى . وعندئذ يعد الضعيف سالمة ومتعة من متع الحياة للقوى .

وكثيراً ما تكون القوة المادية:قوة الأجسام أو قوة العصبيات ، أو وسائل العدوان — هى وسيلة الملاءمة بين رغبة الإنسان فى الحياة ، واضطراره لأن يشاركه غيره فى الوجود .

* * *

والقرآن الكريم فيما خطه من منهج أخلاق للفرد نحو مجتمعه اعتبر الإنسان يسيطر عليه هذان الجانبان ، ويقومان طبيعته الإنسانية . وأن فى الإنسان ما يدفعه إلى أن يعيش ويحافظ على كيانه وبقائه ، وأن فيه أيضاً ما يدفعه إلى الاتصال بغيره من نظرائه ، إما اتصال احتكاك ونفرة ، أو اتصال تعاون ، وسعى منتظم مشترك.

وما يوجد فى أدب القرآن بالنسبة لأخلاق الفرد نحو مجتمعه — قام على هذا الاعتبار . وهدف إلى الملاءمة بين الجانبين فى الإنسان ، دون أن يكون هناك تمجيد للقوة المادية كوسيلة للملاءمة ودون أن تكون الصورة النهائية للملاءمة هى الاحتكاك والنفرة بين فرد وآخر أو بين أفراد وآخرين .

وبهذا الطريق الذى رسمه القرآن للملاءمة الكريمة ، وهى الملاءمة المؤدية إلى التعاون والمشاركة ، المنبعثة عن رضا واقتناع — نرى أن الإسلام وجدها ضرورة واضحة لصالح الأفراد أنفسهم ، وفى صلاتهم بعضهم ببعض ، التى ينشأ عنها مجتمعهم وجماعتهم . يقول الله تعالى :

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ،
ولا تنس نصيبك من الدنيا ،
وأحسن كما أحسن الله إليك ،
ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين[1] » ..

---

(١) القصص : ٧٧

فنصح جل شأنه أن يقصد الإنسان إلى الدار الآخرة فيما يصيبه من نعم فى هذه الحياة . وشرح ذلك بأن يكون تصرفه إزاء هذه النعم تصرفاً مزدوجاً :

أولا : —

(أ) أن لا ينسى حق نفسه فيها ، فقال : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » .

وثانياً : —

(ب) أن لا ينسى حق غيره فى جماعته ، وذلك بأن يحسن إليه من هذه النعم ، ثم مع ذلك بأن يحول دون أن تطغى عليه فيفسد فى الأرض ويثير بسببها الشرور والآلام الإنسانية : « وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض » .

وبتقرير القرآن حق الإنسان فى الانتفاع بالدنيا ونعمها .. ثم بطلب أن يحسن إلى غيره فى جماعته ، وبأن لا يتخذ من النعم التى حصلها وسيلة للإفساد فى المجتمع فى أية صورة من صور الإفساد — يكون قد لاءم بين ذات الإنسان كفرد ، وبين غيره كمجتمع .. وفى الوقت نفسه بنى هذه الملاءمة على نظرة واقعية إلى الطبيعة الإنسانية وما تنطوى عليه من قوتين تدفعان الإنسان إلى سعيه ، دفعاً قوياً ، وإن كان هذا الدفع غير متكافىء فى الحياة : قوة المحافظة على الذات والنفس ، وقوة الميل إلى مشاركة الغير .

وصورة الملاءمة التى ينصح بها الإسلام بين هاتين القوتين فى الإنسان تدل على حرص الإسلام على التعادل بين هاتين القوتين ، أو بالأحرى تدل على رغبته الأكيدة فى عدم سيطرة جانب الذات على جانب المجتمع فى طبيعه الإنسان .

وآيات كثيرة أخرى فى القرآن الكريم تدل على أن حق الإنسان فى الاستمتاع بهذه الحياة حق مشروع ، لا مفر من تقريره ، موحى من خصائص ذاته . على أن هذا الحق المشروع يجب أن لا يؤدى إلى إهمال حق مشروع آخر بحسب طبيعة الإنسان نفسه أيضاً ، وهو حق المجتمع أو حق الآخرين معه .

فمن ذلك قول الله جل شأنه : « فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا ، وما عند الله خير وأبقى ، للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون[1] » وقوله : « المالُ والبنُون زينةُ الحياةِ الدنيا ، والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عندَ ربِّكَ ثواباً وخيرٌ أملاً[2] » .

فقد تضمن كل من الآيتين الكريمتين حق الأفراد فى الاستمتاع بمتع هذه الحياة والسعى إلى تحصيلها . وذلك ما يشير إليه صدر كل آية منهما وهو : « فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا » فى الآية الأولى .. « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » فى الآية الثانية . كما تضمنتا حق الجماعة فى المشاركة فى هذه النعم . وهذا ما يشير إليه الباقى فيهما . وهو : « وما عند الله خير وأبقى » فى الآية الأولى .. « والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا » فى الآية الثانية . إذ الثواب الأخروى عند الله مرتبط أيما ارتباط بأداء الفرد حق غيره ، وحق مجتمعه . لأن أداء مثل هذا الحق هو الذى يشق على النفس أداؤه . لذلك طلب تهذيب النفس عن طريق القيادة : يهدف إلى تمكينها من أن تؤدى حق الغير أو حق المجتمع فى سهولة ويسر ، وفى رضا واطمئنان . يقول جل شأنه :

« والذينَ صَبروا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبهم ، وأقامُوا الصلاةَ ، وأنفقوا مما رزقناهم سِراً وعلانيةً ، ويَدْرأون بالحسنةِ السيئةَ ، أولئك لهم عُقْبَى الدار[3] » .

والقرآن الكريم فى تعبيره عن أداء حق الغير أو حق الجماعة : تارة يعبر عنه

---

(١) الشورى : ٣٦ (٢) الكهف : ٤٦
(٣) الرعد : ٢٢

بطلب الإحسان كما فى قوله تعالى : « وأحسن كما أحسن اللهُ إليك[1] » وتارة أخرى يعبر عنه فى صورة أمر آخر كقوله : « وأوفوا بالعهد إنّ العهد كان مسئولا[2] » .. وقوله « وأوفُوا الكيلَ إذا كِلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلا[3] » .

وقد يعبر عن ذلك فى صورة نهى ، كقوله تعالى : « ولا تأكلُوا أموالكم بينكم بالباطل وتُدلُوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون[4] » .

فهنا طلب من أفراد المؤمنين أن يفسحوا الطريق لتحقيق العدل . وذلك بأن يتجنبوا السعى للاستيلاء على حق الآخرين بطريق الغش والتدليس .

وإذاً عبر القرآن فيما يتصل بأداء حقوق الغير فى صورة الأمر والإيجاب كان مؤدى التعبير : أن الإتيان بالمطلوب فيه مصلحة وإحسان للمجتمع ، وإذا عبر عنه فى صورة النهى كان مؤدى التعبير : أن فى إتيان المطلوب فساداً وفناء للمجتمع .

وأخلاق الفرد نحو مجتمعه فى آداب القرآن الكريم ترسم للأفراد : كيف يلبون مطالبهم ورغباتهم فى الحياة ، ثم مع ذلك يستطيعون أن يكونوا علاقات مع غيرهم فى المجتمع ، لا اعوجاج فيها ، ولا زيف ، ولا خداع ، ولا اغتصاب . وإنما هى علاقات قائمة على الرضا والاطمئنان ، وفيها متعة تفوق المتع المستهلكة فى الحياة تحقيقاً للرغبات الخاصة .

---

(١) القصص : ٧٧ (٢) الاسراء : ٣٤
(٣) الاسراء : ٣٥ (٤) البقرة : ١٨٨

صلة الزوجيـــة

تحدثنا عما رسمه القرآن الكريم لأخلاق الفرد نحو نفسـه ، ونحو مجتمعه . وذكرنا أن ما رسمه القرآن فى هذا الشأن تحديد للطريق الذى إذا سلكه الفرد كان إنساناً مهذباً : لا تتحكم فيه طبيعته الفجة ، ولا تسيطر عليه روح الانفرادية . كما هو تحديد لطريق التعادل بين القوتين اللتين تدفعان الإنسان فى تصرفه بنسبة غير متكافئة ، وهما قوتا شهوته وعقله فى حال سلوكه نحو نفسـه .. وقوتا محافظته على بقاء نفسه ومشاركته فى مجتمعه .

والفرد الذى يطلب منه القرآن الكريم أن يكون ذلك الإنسان المهذب فى السلوك الفردى أو الاجتماعى يستوى فيه الذكر والأنثى . يقول الله تعالى : « وَمَن يَعْمَلْ من الصالحات مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِن فأولَـئِك يَدخُلون الجنةَ ولا يُظلمونَ نقيراً [1] » . فالآية تنص على أن جزاء العمل الصـالح هو دخول الجنة ، وأن الذكر والأنثى فى ذلك سواء .

وإذا تحدثنا الآن عن الأخلاق فى أدب القرآن التى حدد بها علاقة الزوجين بعضهما ببعض فإنا فى واقع الأمر نضيف إلى أخلاق القرآن بالنسبة للفرد نحو نفسه ونحو مجتمعه : ما يوصى به الله جل شأنه فى كتابه العزيز بالنسبة للفرد كزوج وكزوجة . وإذن أخلاق الزوجية فى أدب القرآن الكريم هى :

١ — أخلاق الفرد نحو نفسه ،

٢ — وأخلاق الفرد نحو مجتمعه ،

---

(١) النساء : ١٢٤

٣ — وأخلاق الفرد كزوج .. أو كزوجة بالنسبة لطرفه ، الآخر .

فإذا طلب من كل من الزوجين كفرد أن يكون مهذباً فى سلوكه نحو نفسه ونحو الآخر ، وأن لا يرجح شهواته على عقله ، ولاحفظ بقاء ذاته على مجتمعه : فإنه يطلب منهما بصفة الزوجية خاصة أن تصير معاملة كل منهما للآخر .. إلى « الانسجام » حتى ليبدو أن تصرفهما معاً تصرف ناشىء عن فرد واحد ، ولغاية واحدة ، وفى طريق واحد .

وهـذه درجة فى السلوك والمعاملة فوق درجة سلوك الفرد نحو مجتمعه على العموم . يقول الله تعالى : « ومن آياته أنْ خَلَقَ لكُم مِن أنفُسِكم أزواجاً لتسكُنوا إليها ، وجَعَلَ بينَكُم مودّة ورَحمة ، إنَّ فى ذلكَ لآياتٍ لقوم يتفكّرُون [(١)] » . ويقول : « هو الذى خَلقكم من نفْسٍ واحدة وجَعلَ منها زوجَها ليسكُنَ إليْها [(٢)] » فجملت فى هاتين الآيتين غاية الزواج : أن يسكن كل من الزوجين الآخر ويطمئن إليه ، ويستريح لوجوده . ولا تكون حالة السكنى هذه وحالة الاطمئنان والراحة فى اجتماع فرد بآخر إلا إذا كان هنالك انسجام بينهما ، واقترب كل منهما نحو الآخر بسلوكه وطريقه فى الحياة .

والطريق أولا إلى هذا الانسجام : القصد فى اختيار الزوج والزوجة إلى صفات المؤمن ، لا إلى صفات أخرى بعد ذلك . والمؤمن هو صاحب الخلق الكريم . قال الله تعالى : « إنَّ أكرَمكُم عِند الله أتقاكُم [(٣)] » . والعامل فى استمرار هذا الانسجام أمران :

الأمر الأول : أن يحفظ الرجل على المرأة حياءها وخفرها ، وبالتالى يحفظ

---

(١) الروم : ٢٣ (٢) الاعراف : ١٨٩
(٣) الحجرات : ١٣

عليها كرامتها كأنثى . ويتجلى ذلك فى أن يعبر لها عن تقديره إياها بمنحة يتقدم بها إليها حين الرغبة فى إتمام الزواج بها . وذلك هو ما يؤخذ من قوله تعالى : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ، فإن طبن لكم عن شىء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً(١) » .

وتوكيداً لهذه المنحة وأن لها أثرها فى معنوية المرأة ثم فى منزلتها بعد ذلك لدى الزوج : جعل القرآن الكريم هذه النحلة ـ أى المنحة ـ حقاً للمرأة لا يسترد الرجل بعضها إلا عن طيب نفس ورضاء خالص منها .

هذه المنحة ـ وهى التى تعرف بالمهر ، مهما قلت قيمتها ـ تشعر الزوجة فى حياتها مع الزوج ، بأن الزوج هو الذى سعى إليها . ولذلك فهى موفورة الكرامة وليس لأنوثتها عندئذ دخل فى الغض من قيمتها كإنسان ، كما كان الحال قبل الإسلام . وهى تعيش الآن بعد ذلك مع الرجل فى وضع إنسانى متساو .

وإذا استقر شعور المساواة فى الإنسانية بين الزوجين سارت حياتهما إلى الانسجام ، وأثمرت المحبة وعدم الفرقة ، ونتج عنهما خلف صالح ترعاه محبة الاثنين ، ويعيش فى ظل وئامهما ووفاقهما .

الأمر الثانى : فى الاحتفاظ بالانسجام بين الزوجين وإدامته : أن الحقوق والواجبات الزوجية متكافئة ومتعادلة بحسب طبيعة كل منهما . للزوج حقوق وواجبات .. وللزوجة حقوق وواجبات ، وكل واحد من النوعين من هذه الحقوق والواجبات متكافىء ومتعادل مع الآخر . ومعنى التكافؤ والتعادل هنا : أن الحياة الزوجية ـ كى تصل إلى غايتها وهى السكنى والاطمئنان والانسجام ـ لابد من إسهام الرجل والمرأة فيها سواء ، ولابد من إفادة كل منهما معاً بهذه العلاقة :

---

(١) النساء : ٤

لا يضار الرجل بالعلاقة الزوجية فيؤدى ما عليه دون مساهمة من المرأة فيها ، ولا تضار المرأة فتؤدى ما عليها دون مساهمة من الرجل فيها .

وهذا التكافؤ فى الحقوق والواجبات هو الذى تشير إليه الآيتان الكريمتان: « الرِّجالُ قوّامُونَ على النساءِ بما فَضلَ اللهُ بَعضَهمْ على بَعضٍ وبما أنفَقُوا من أموالهمْ (١) » .. « ولهنَّ مِثلُ الذِى عَليهنّ بالمعرُوفِ ، وللرِّجالِ عَليهنّ درَجةٌ (٢) » .

والمراد بالتماثل فى الحقوق والواجبات هو التكافؤ والتعادل بينهما . وليس أن تكون كل حقوق الرجل وواجباته هى ذات حقوق المرأة وواجباتها . فالرجل عليه الإنفاق مثلا ، ودور المرأة فى ولدها ورعايته فى تنشئته وفى حمله .. وهكذا . أما درجة الرجال على النساء فى الآية الثانية ، وهى القوامة والقيادة فى الآية الأولى : فنسبتها إلى الرجل لاتخرج دوره فى الحيــاة الزوجية عن أن يكون فيها مسهماً لتعادل هذه الحياة وانسجامها . وهى لذلك ضرورة إنسانية لصالح الزوجة ، وليست مظهراً على حسابها وفى سبيل تقويضها .

ولم يقصد القرآن مطلقاً فيما أوصى به فى علاقة الزوجين بعضهما ببعض : إلى هدم السكن والاطمئنان التى جعلها غاية الزواج . وإلا كان غير منطق مع مبادئه ، وكان غير مستقيم بعد ذلك : أن يحث على عدم الإضرار ، وعلى الصبر والتؤدة إذا ماتعرضت الحياة الزوجية لأزمة طارئة ، على نحو مايوصى به فى قوله : « وعاشروهن بالمعرُوف ، فإن كرهتموهــن فعسى أن تكرهُوا شيئاً ، ويجعَل اللهُ فيــه خيراً كثيراً (٣) » .. فمطالبته الرجال بعدم الإضرار فى العشرة ، وبالصبر عند الضيق بالزوجات : ينبىء عن حرصه على الرغبة فى بقاء السكن والاطمئنان . وما أوصى

---

(١) النســاء : ٣٤ (٢) البقرة : ٢٢٨

(٣) النســاء : ١٩

به القرآن فى سبيل الزواج وفى سبيل الحياة الزوجية: يقصد إلى حياة مثمرة ناجحة فيها اطمئنان وهدوء ، خالية من النفرة والنفور .. خالية من الكدر ، فضلا عن خلوها من الإضرار فى المعاشرة .

والقرآن الكريم فيما يتصل بالزواج - وإن هدف إلى انسجام - لم يقصد إلى الغاء أحد الطرفين فى صلة الزوجية . بل أبقى على فردية الاثنين ، ونظم الحياة بينهما ، بحيث تكون حياة مثمرة لصالحهما ولصالح الإنسانية . ومن أجل أنه أبقى على فردية الاثنين لايسلب من أحدهما كفرد: حقوقه الشخصية بعد الزواج . ولهذا كان للفرد حقوق شخصية وحقوق زوجية فى الزواج .. وعليه واجبات متنوعة كذلك . فالزوجة مع يسارها : نفقتها فى مال زوجها . ومع ارتباطها بزوجها فى عقب الزوجية : فلها وحدها حق استثمار مالها بالطريقة التى تراها ، ولها كذلك حق احتفاظها فى العقيدة بدينها الكتابى ، ولها حريتها فى الرأى السياسى ، والتعبير عنه . ولكن كفالة هذه الحرية لها أو لزوجها فى حدود عدم الإضرار بأحد الطرفين فى الزوجية .

وأخلاق القرآن الكريم فى العلاقات الزوجية : هى الدعوة إلى الانسجام بين الزوجين . وسبيل هذا الانسجام بينهما التكافؤ فى الحقوق والواجبات فى نوعها ، لا فى شخصها وعينها .

أما الإضرار فى المعاشرة فالنهى عنه ليس وقفاً على العلاقة الزوجية ، وإن كان هنا أشد وألزم ، لأنه يتنافى تماماً مع الزواج وهدفه .

ورسالة القرآن فى علاقة الزوجين بعضهما ببعض: هى إقامة التوازن والتعادل، على نحو رسالته فى سلوك الفرد مع نفسه ونحو مجتمعه .

الأسرة — صلة الأولاد بالوالدين

ونعرض للموضوع الثانى من موضوعات الأسرة ، وهو صلة الأولاد بالوالدين فى ضوء وصايا القرآن الكريم ، وما حدده من منهج أخلاقى بقى هذه الصلة : الهزات والانحراف ، ويكفل لها فوق ذلك أن تسير إلى غايتها المرجوة ، وهى رضاء الوالدين ومتعتهما بأولادهما من جانب ، وحسن توجيه الأولاد نحو والديهم من جانب آخر .

والقرآن الكريم نظر إلى هذه الصلة فى صورتها الواقعية .. نظر إليها على أنها صلة مرجوحة من جانب ، وراجحة من جانب آخر : نظر إليها على أن الطرفين فى علاقة أحدهما بالآخر ليسا فى درجة متساوية ولا فى وضع واحد . فعلاقة الوالدين بأولادهما أشد وأقوى من علاقة الأولاد بوالديهم . فالوالدان ، حسب الفطرة السليمة ، يتفوقان فى ميلهما ومحبتهما لأولادهما على هؤلاء فى ميلهم ومحبتهم لوالديهم .

والصلة بين الأولاد والوالدين فى دائرة الميل والحب إذن صلة غير متكافئة وتعلق أحد الجانبين بالآخر تعلق غير متعادل .

يشير إلى هذا : أن القرآن فى مخاطبته الآباء لم يذكر أولادهم — فى آية من الآيات التى ذكرهم فيها — إلا على أنهم زينة ومتعة فى حياة والديهم . ومن أجل أنهم زينة أى متعة جعلهم بالنسبة لوالديهم : فتنة وموضع إغراء . ثم فيما ذكرهم لم يذكرهم إلا مقترنين بالمال ، على أنه أيضاً زينة ومتعة ، وموضع فتنة وإغراء . بل أنه فى بعض الآيات كاد يقصر الدنيا على الأولاد والمال . يقول الله تعالى فى سورة الكهف : « المالُ والبنون زينةُ الحياةِ الدنيا » .. ويقول فى سورة التغابن :

« إنما أموالكم وأولادكم فتنة » .. ويقول فى سورة الحديد: « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ، ولهو ، وزينة ، وتفاخر بينكم ، وتكاثر فى الأموال والأولاد » .

ومؤدى التعبير عن الأولاد بأنهم زينة الحياة ، أو فتنة الحياة ، أو موضع التفاخر فيها — أن تعلق الوالدين بأولادهم تعلق شديد بحيث يجعلهما لا يريان فى الحياة الدنيا سواء فى مظهرها أو فى مخبرها ، إلا الأولاد ، فى جانب المال أو بعده .

بينما القرآن ذاته فى ذكره للوالدين يعبر عنهما بأنهما فى حياة الأولاد زينة أو موضع فتنة وتفاخر لهم . بل ذكره لهما : يذكرهما على أنهما يجب أن يكونا موضع الرعاية من أولادهم . فقال فى سورة النساء : « وبالوالدين إحسانا ... » وفى سورة البقرة : « يسألونك ماذا ينفقون ، قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين ... » .. وفى سورة لقمان : « ووصينا الإنسان بوالديه » .. وفى سورة العنكبوت : « ووصينا الإنسان بوالديه حسنا ... » .. وفى سورة الأحقاف : « ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً » .

وهذا الفرق فى تعبير القرآن الكريم عن الأولاد والوالدين: يدل على أن الصلة فى سيرها العادى بين الطرفين ليست متماثلة، وأنها فى جانب الوالدين: أقوى منها فى جانب الأولاد .

ورسالة القرآن الأخلاقية فى هذه الصلة إذن يجب أن تبلغ الطرفين .. إلى التكافؤ والتعادل فى سلوك كل واحد منهما نحو الآخر .. يجب أن تغير مجرى سيرها العادى إلى خطوات متساوية بينهما حتى تكون نقطة الالتقاء وسطاً بين الإثنين ، فلا يميل أحدهما الآخر ولا يزهد فى لقائه . وبما أن الدافع إلى هذا الالتقاء الوسط متوفر لدى الوالدين بحكم الطبيعة أو الإلف والعادة، أكثر من توفره عند الأولاد: كانت وصايا القرآن فى الصلة بين الطرفين تكاد تكون موجهة إلى الأولاد

وحدهم ، وفى صورة تجعل طلب ذلك من الأمور التى لايغتفر التخلف فيها بحال. ومظهر ذلك فى تعبير القرآن الكريم:أنه يقرن طلب الإحسان من الأولاد إلى الوالدين . . بطلب عدم الشرك فى العبادة .

يقول الله تعالى فى سورة البقرة : « وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لاتعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً . . . » . . ويقول فى سورة الإسراء : « وقضى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحساناً . . . » . . ويقول فى سورة الأنعام: «قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ، أن لا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحسانا . . . » .

وقد يضيف القرآن الكريم إلى هذا الاقتران : الأسباب والدوافع التى من شأنها أن تدفع الأولاد أصحاب الفطر السليمة إلى البر بالوالدين والإحسان إليهما . لأن هذه الأسباب منتزعة من تطور الأولاد أنفسهم: يقول الله تعالى: « وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوالدَيْه إحْسَاناً ، حَمَلَتْهُ أُمُّه كرهاً ووَضعته كُرْهاً[1] » . . ويقول « وَقل ربِّ ارحَمْهُما كما ربيَّانى صَغيراً[2] » .

ثم إن القرآن بينما لم يحدد تفصيل السلوك الذى يسلكه الوالدان نحو أولادهم اعتماداً على الدافع الطبيعى القوى عندهم — يعنى بتحديد المطلوب من الأولاد نحو والديهم . يقول الله تعالى : فى تكملة آية الإسراء السابقة ، وفى آية أخرى بعدها : « وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحساناً ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ، ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً » .

وهو إذ يطلب من الأولاد هذه المعاملة الدقيقة المهذبة فى صِلاتهم بوالديهم فالرعاية الأخرى كالإنفاق والسكنى عند عجزهما أوجب وأشد ضرورة .

* * *

---

(١) الأحقاف : ١٥ (٢) الاسراء : ٢٤

ولم يطلب القرآن من الوالدين فى صلاتهما بأولادهما إلا عدم الافتتان بهم. والافتتان بالأولاد من شأنه أن يلهى الوالدين عن ذكر الله، ووصاياه وتعاليمه فى حياة الإنسان. يقول الله تعالى: « يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم، ولا أولادكم عن ذكر الله[1] »... وعندئذ يسيئان تقدير الحياة. وعاقبة ذلك: انحرافهما فى توجيه الأولاد وبالتالى انحرافهما فى الاستمتاع بهم. فتكون حياة الطرفين حياة خالية من الاستقرار النفسى، مليئة بالأحداث المفاجئة المزعجة.

* * *

هذا ما يطلبه القرآن فى صلة الوالدين بالأولاد، سواء من جهة الوالدين أم من جهة الأولاد أنفسهم. وما يطلبه هنا وهناك قائم على اعتبار الفطرة الإنسانية التى لم يعترضها شذوذ وتخلف فى نموها وتطورها. وتلك هى حال الإنسان السائدة. وهذه الحال هى الأساس فى فهم توجيه القرآن لصلة الوالدين بالاولاد، والاولاد بالوالدين.

أما نهى القرآن الآباء عن قتل أولادهم خشية الفقر، كما فى قوله تعالى. «...ولا تقتلوا أولادكم من إملاق. نحن نرزقكم وإياهم[2] »... وقوله تعالى: « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق، نحن نرزقهم وإياكم، إن قتلهم كان خطأ كبيراً[3] »... وأما حديث القرآن عن عداوة بعض الأولاد لوالديهم — أما هذا وذاك: فإنه لا يقوم على الطبيعة الإنسانية ولا يحدد منهجاً لطريقها العادى. إنما هو علاج لحالة طارئة... علاج لانحراف غير شائع فى طبيعة الأولاد، تخلقه البيئة المنحرفة إذا طال انحرافها فيسيئان تقدير الحياة من أجلهم.

ومنهج الأخلاق فى أدب القرآن هو أن يحسن الأولاد إلى الوالدين. وليس إحسانهم هو إنفاقهم. إنما هو قبل ذلك التعبير عن شعور الاحترام نحوهما:

---

(١) المنافقون: ٩ (٢) الأنعام: ١٥١
(٣) الاسراء: ٣١

«فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً ، واخفض لهما جناح الذُّلِّ مِنَ الرَّحمة [١]..» .. وأيضاً أن لا يفتتن الوالدان بأولادهم ، وأن يكونا معتدلين في ميلهما إليهم وفي محبتهما إياهم .

والإحسان من جانب ، وعدم الافتتان من جانب آخر : هو الطريق الأمثل إلى التكافؤ والتعادل في صلة الأولاد بالوالدين والوالدين بالأولاد . وتلك سنة القرآن في كل جانب من جوانب الحياة الإنسانية .

---

(١) الاسراء : ٢٣ ، ٢٤

الأسرة .. صلة الأقارب

حديثنا هذا عن صلة الأقارب بعضهم ببعض حسبما توصى أخلاق القرآن الكريم . هو الموضوع الثالث من موضوعات الأسرة ، بعد موضوع صلة الزوجين ، وصلة الأبناء بالآباء .

وما هدف إليه القرآن هناك فى صلة الزوجية ، وصلة الأبناء بالآباء من دعم الروابط ، وتقوية أواصر الصلة عن طريق التكافؤ والتعادل بين الطرفين — هو ذات الهدف هنا أيضاً فى صلة الأقارب بعضهم ببعض .

أقارب الإنسان مصدر قوته إن هم أخلصوا فى صلتهم به ، والتفوا حوله . لأنهم عندئذ بالنسبة له أكثر من الإنسان العادى ، وأكثر من الجار ، وأكثر من المواطن . هم نظراؤه فى الدم ، وفى الطبائع الموروثة والعادات المألوفة والميول المسيطرة ، والاتجاهات اللازمة . هم عصبته ، وعدته ، وقومه بالمعنى الخاص . ولكن هم أنفسهم قد يكونون مصدر ضعف له ، إذا حقدوا عليه ، وتمكنت من أنفسهم شهوة الغيرة منه . وليسوا عندئذ سبباً عادياً فى أضعافه ، وخصومته ، أو على الأقل فى إزعاجه وعدم طمأنينته . ذاك لأن السبب الذى به كانوا قوة له عند إخلاصهم فى علاقتهم به هو السبب نفسه فى شدة تأثيرهم عليه ، وعلى نفسيته فى الحياة إن اضطربت صلاتهم به ، وانحرفت عن الوضع السليم .

تلك هى سنة الإنسان مع أقربائه : إما أن يقوى بهم الإنسان أو يضعف بسببهم . والقرآن الكريم أفصح عن هذين الجانبين فى صلة الإنسان بأقاربه فى الدم والنسب . يقول الله تعالى فى الإفصاح عن الجانب الأول على لسان موسى عليه السلام مناجياً ربه : «وأخى هارون هو أفصح منى لساناً ، فأرسله معى ردءاً

يُصَدِّقُنى إِنِّى أَخَافُ أَن يُكَذِّبون . قال : سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بأخيك ، ونَجعَلُ لكما سُلطاناً فلا يَصِلون إليكما بِآياتنا ، أنتما ومَن اتَّبعكما الغَالبون »[1].

أما الجانب الآخر فتمثله قصة يوسف عليه السلام مع إخوته . انحرفت علاقة القرابة بينهم وبينه ، فحقدوا عليه وحاولوا أن يكيدوا له فى أبشع صور الكيد ، وهى العمل على قتله والتخلص منه لتخلو لهم الحياة مع أبيهم وينفردوا بصحبته . يقول الله تعالى : « لقد كان فى يُوسُفَ وإخوتِه آيات للسائلين ، إذْ قالوا : ليوسف وأخُوه أحبُّ إلى أبينا منَّا ونحنُ عُصْبة ، إنَّ أبانا لفى ضلالٍ مُبين . اقتُلوا يوسف أو اطرَحُوه أرضاً يخلُ لكم وجْهُ أبيكم ، وتكونوا من بعدِهِ قوماً صالحين[2] » . نعم هم قد ندموا بعد ذلك على ماعقدوا عليه العزم ، وحاولوا تنفيذه كما يدل عليه قوله تعالى : «قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنَّا لخاطئين[3] » . « وقالوا يا أبانا استغفر لنا ذُنوبنا إنا كنَّا خاطئين[4] » . ولكن موقفهم كأخوة من أخ لهم أول الأمر : يعطى أن الأقارب قد يدفعهم الحقد والانحراف فى علاقة بعضهم ببعض ، إلى أن يكونوا مصدر ضعف وإزعاج وقلق ، بدلا من أن يكونوا مصدر قوة ، وعون ، وجاه .

توجيه القرآن فى صلة الانسان باقربائه

وإذا كانت هذه سنة الإنسان فى علاقته مع أقاربه ، وكانت قوته بهم أو ضعفه عن طريقهم أمرا غير عادى — كان من السلامة فى توجيه الإنسان نحو أقربائه أن تزداد عنايته بهم ، على نمو صلتهم به ، وأن يكون هناك تكافؤ وتعادل بين هذه الصلة ورعاية شأنها . وهذا التوجيه هو مانلمسه فى أخلاق القرآن فى صلة الإنسان بأقربائه وأولى رحمه .

وتوجيه القرآن فى هذا الشأن يتناول العناية بهذه الصلة من الجهة النفسية والروحية ، ثم من الجهة المادية .

---

(١) القصص : ٣٤ ، ٣٥ (٢) يوسف : ٧ — ٩
(٣) يوسف : ٩١ (٤) يوسف ٩٧

يقول الله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله .. إن الله بكل شيء عليم[1] » ، ويقول : « ذلك الذى يبشر الله عباده ، الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى[2] » . ففى هاتين الآيتين الكريمتين أبرز القرآن مدى حرصه على أن يعنى الأقارب بعضهم ببعض فى صلاتهم .

فعبر فى الآية الأولى بأن كون الأرحام والأقارب بعضهم أولى ببعض فى رعاية العلاقات والترابط أمر مسطور فى كتاب الله ، ولم تخل عنه رسالة من رسالات السماء . ودلالة هذا التسجيل زيادة الحرص من قبل الله تعالى على أن يعنى الناس بعلاقة القربى عناية شاملة ، لا تقل فيها العناية بترضية النفوس والابقاء على صفائها : عن العناية بمساعدة المعوزين من الأقرباء مساعدة مادية تقيهم شر الحقد على الأغنياء فيهم ، وشر الذل للحاجة نفسها .

وفى الآية الثانية نص بالذات على المودة فى القربى كعمل من الأعمال الصالحة التى يثاب ويؤجر صاحبها عند الله على القيام بها .

ثم بجانب هاتين الآيتين اللتين تدلان على طلب الرعاية فى صورها المتنوعة لعلاقة القرابة — نجد آيات أخرى تطلب من المؤمنين أن يعنوا بأقربائهم ويسهموا فى سد حاجاتهم ، لا بعنوان أنهم فقراء أو مساكين ، بل بعنوان أنهم أقرباء . يقول الله تعالى : « فآت ذا القربى حقه ، والمسكين وابن السبيل ، ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون[3] » ، ويقول : « يسألونك ماذا ينفقون؟ قل ما أنفقتم من خير فللوالدين ، والأقربين ، واليتامى ، والمساكين وابن السبيل ، وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم[4] » . ويقول : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ،

---

(١) آخر سورة الانفال (٢) الشورى : ٢٣
(٣) الروم : ٣٨ (٤) البقرة : ٢١٥

والملائكة، والكتاب، والنبيين، وآتى المالَ على حُبِّه: ذوى القُربى، واليتامى، والمساكين، وابن السَّبيل، والسَّائلين وفى الرِّقاب ... »[٣].

وزيادة اهتمام القرآن بطلب العناية بعلاقة الأقرباء بعضهم ببعض حتى تتكافأ منزلة هذه العلاقة فى أصل وضعها وفى آثارها الطيبة إذا استقام أمرها — يدل عليها تقديمه دائماً فى استحقاق الحصول على أموال البذل والعطاء: الأقرباء الذين ليس لهم يسار، وبهم حاجة — على غيرهم خارج الأسرة: « فآت ذا القُربى حقه، والمسكين» .. « وآتى المال على حُبِّه ذوى القُربى واليتامى .. » .. «قل ما أنفقتم من خير فللوالدين، والأقربين واليتامى » .

وسئل النبى صلى الله عليه وسلم عن صدقة الرجل على قريبه فقال: «**له اجران: اجر القرابة، واجر الصدقة**» . ولفظ الحديث فى رواية النسائى والترمذى: « **الصدقة على المسكين صدقة، وهى على ذى الرحم ثنتان: صدقة، وصلة** » .

* * *

تعانى الأسرة كثيراً من مظاهر الضعف والفرقة . وبدلاً من أن تكون الزوجية، والبنوة، والقرابة عوامل قوة أضحت من أسباب الخصومة، والانقسام، والقلق . إن أزمة الأسرة فى هذه العلاقات أزمة سوء فهم وتطبيق، وأزمة أنانية وانفرادية .

وأراد القرآن فيما أوحى به فى منهج السلوك والمعاملة بين أفراد الأسرة بعضهم مع بعض : أن يجنبهم الانحراف والقلق، والنزاع . أراد أن يوفق وأن يلائم بينهم فى اتجاههم فى الحياة وفى نفعهم بالحياة . أراد أن تكون الاسرة قوية صاحبة عزة وسيادة، على نفسها وعلى غيرها .

وطريق الضعف واضح، وهو طريق الخصومة والأنانية . وطريق القوة واضح وهو طريق الانسجام والمشاركة والمعاونة . ومنهج القرآن للأسرة هو طريق القوة، وطريق النجاح والأمل فى الحياة .

---

(١) البقرة : ١٧٧

الجماعة وتنظيم علاقة الأفراد فيها

تحدثنا عن أخلاق القرآن بالنسبة للأسرة . ورأينا أن الغاية التى تقصد إليها وصايا القرآن الكريم فى الجانبين: هى حفظ التوازن ، وصيانة الأمر عن التطرف.

والآن نعرض لأخلاق القرآن فيما يتصل بالجماعة ، وما فصلته آياته فى تحديد علاقة الأفراد بعضهم ببعض فى ظل هذه الوحدة الكبيرة التى تتناول أسراً مختلفة وقبائل عديدة ، وأجناساً بشرية متغايرة ، وهى وحدة الجماعة .

* * *

يوجد الأفراد بحكم التوالد والتناسل ، وذلك أمر طبيعى فى الانسان . وتوجد الأسرة — وهى الوحدة الصغيرة — بحكم علاقة الدم والقرابة ، وهى علاقة طبيعية فى دائرة الكائن الحى . أما الوحدة الكبيرة وهى الجماعة فوجودها يتوقف فحسب على الأسباب التى تكتنف أفرادها بحكم البيئة أو الموطن أو إمكانيات العيش . بل لابد فى وجود أية جماعة وجوداً قوياً ظاهراً من وحدة **الغاية والهدف** . لأن وحدة الغاية والهدف هى المركز الذى يتجمع الأفراد حوله ، ويتكتلون من أجله ، وتشتد الأواصر بينهم بسببه ، وتصير الى اخوة فى النفس **والروح** ، بعد التقاء على المبدأ والفكرة .

غاية الجماعة الاسلامية :

والقرآن الكريم فيما أوصى به من أخلاق للجماعة ، لم يوص إلا بعد أن حدد الغاية للجماعة التى يريدها ، والتى عمل على تكوينها . ووصاياه هنا بعد ذلك هى وصايا لحفظ توازن هذه الجماعة ، وبالتالى لحفظ علاقات الافراد فيها من التفكك أو التلاشى .

والغاية التى حددها القرآن لجماعته هى عبـــــادة الله وحده . يقول تعالى :

«واعبُدُوا الله ولا تشركوا شيئاً[1] . . » .. « قل إنى أمرتُ أن أعبد الله مخلصاً له الدين »[2] .. « ذلكم الله ربكم ، لا إله إلا هو ، خالقُ كلِّ شىء ، فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير[3] » .. « إن هذه أمتكم أمةً واحدة وأنا ربكم فاعبدون[4] » .

وهو إذ يحدد غاية الجماعة بعبادة الله وحده ، يدفع أفرادها إلى الشعور بالكرامة ، والسير فى الحياة دون عائق من أوهام الوثنية فى أية صورة من صورها . والشعور بالكرامة ، والانطلاق فى الحياة من قيود الخرافه والشعوذة ، واقتحام الصعاب فيها دون إنتظار لوضع نجم أو كوكب ، ودون إذن وصى أو سيد — غايات تستهدف من عبادة الله وحده . وأصحاب هذا الشعور أولئكم الذين انطلقت نفوسهم من قيود الخرافة والشعوذة والوثنية يضيفون إلى قوتهم كأصحاب سعى وحركة ، قوة توجيه سليم ويقظة مستمرة . وهم لهذا وذاك لابد أن ينجحوا إذا كافحوا ، ولابد أن ينتصروا إذا خاصموا .

وصايا القرآن لحفظ الجماعة

ولكى لا يدخل عامل ضعف فى علاقات الأفراد فى هذه الجماعة فتتجه نظرتهم إلى هذه العلاقات بعد أن ارتفعت إلى الله سبحانه ، ويتجه كفاحهم فى صلات بعضهم ببعض بعد أن تركزت فيما وراء فرديتهم وذواتهم — أوصى القرآن الكريم بما يحفظ هذه العلاقات ويديم نظرتهم إلى الله ، وكفاحهم لصالحهم كجماعة يرون فى سيادتها سيادة لأنفسهم ، وفى عزتها إعزازاً لهم جيلا بعد جيل .

١ — أوصى القرآن باحتفاظ الجماعة بسيادتها لنفسها على نفسها ، وذلك بأن

---

(١) النساء : ٣٦ (٢) الزمر : ١١
(٣) الأنعام : ١٠٢ ، ١٠٣ (٤) الأنبياء : ٩٢

لا يكون لأفرادها ولاء لغير بعضهم بعضاً ، أى لا تكون للدخيل بينهم طاعة عليهم ، ولا يرقى هذا الدخيل فى نفوسهم لدرجة أن تكون له وصاية ، أو يعد مرجعاً فى إبرام شئونهم . يقول الله تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ، إن الله عزيز حكيم[1] » يوصى القرآن بذلك لأنه إن قبلت الجماعة ولاية الأجنبى ووصايته ابتعدت عن الهدف والغاية التى اجتمعت حولها قبل ، وأضحت أفراداً فقط مختلفى النزعة والقصد .

٢ — أوصى القرآن كذلك بالعدل فى الحكم بين الناس . يقول الله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل[2] » . فيوصى القرآن بالعدل فى الحكومة والفصل بين الناس لأنه أساس الاطمئنان بين الافراد على أنهم سواء فى ظل الجماعة ، وأن الجماعة لذلك ليست حزباً ، بل رعاية عامة . وهذا الاطمئنان يوصى بدوره إلى التمسك بالجماعة والكفاح فى سبيل بقائها ومؤازرتها .

٣ — أوصى القرآن بالتؤدة فى قبول الأخبار المغرضة ، وفحص شائعات السوء . يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين[3] » . أوصى بذلك لأن سرعة التصديق بمثل هذه الأخبار والشائعات لا يقف عند حد تمزق وحدة الجماعة ، بل من شأنه أن يثير فتنة وينتهى بخصومة عنيفة بين أبناء الجماعة الواحدة ، وبذلك تتحول إلى طوائف متباينة القصد والسعى .

---

(١) التوبة : ٧١ (٢) النساء : ٥٨
(٣) الحجرات : ٦

٤ — أوصى القرآن بعدم استغلال الضعيف : أوصى بعدم استغلال اليتيم ، ومن على شاكلته كالأجير ، أو الأسير . يقول تعالى : « وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً[1] » . وذلك لأن استغلال القوى للضعيف لا يدل على ترابط فى وحدة واحدة بينهما ، ولا على تعلقهما بهدف واحد وغاية واحدة . وإنما يدل على أن الجماعة جمعتها وسيلة لتحقيق الأغراض الخاصة ، ولم تجمعها رعاية الحقوق لكل فرد فيها .

٥ — أوصى القرآن بتقريب الفروق بين الأفراد ، حتى لا يشعر الفقير بحرمانه ، ولا المريض بعجزه ، ولا الجاهل بحمقه وسوء تصرفه ، ولا الصغير بحداثة عهده ، ولا الشيخ بوهن شيخوخته : أوصى صاحب الثروة بالإنفاق ، وصاحب الصحة بالمعاونة ، وصاحب المعرفة والفقه بالتوجيه ، والكبير برحمة الصغير ، والصغير بتوقير الكبير . أوصى بذلك وبمثله ، ولكنه شدد كثيراً فى طلب بذل المال والإنفاق من ذوى اليسار . وذلك لأن من شأن المال أن يغرى صاحبه على عدم الإنفاق ، كما أنه من شأن الحرمان أن يثير القلق والحسد والبغضاء فى نفوس المحرومين ضد غيرهم من الموسرين . يقول تعالى : « والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ، وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ، ويدرأون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار[2] » . ويقول : « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرأون بالحسنة السيئة . ومما رزقناهم ينفقون[3] » .. وآيات أخرى كثيرة تحض على الإنفاق والبذل ، وتنهى عن الشح والبخل .

هدف القرآن فى هذه الوصايا :

وإذا أوصى القرآن بذلك وبغيره مما يتصل بشأن الجماعة : فهدفه أن يبقى على

---

(١) النساء : ٢ (٢) الرعد : ٢٢

(٣) القصص : ٥٤

التكتل والتجمع ، وأن يحول العوامل المزقة ، التى ترجع جميعها إلى اختلال التعادل والتوازن فى الجماعة . فاعتبار الأجنبى والولاء له ، والتحيز فى الحكومة والقضاء بين الناس ، والمسارعة فى قبول الأنباء المغرضة ، واستغلال القوى للضعيف ، وعدم تقرب الغنى من صاحب الحاجة ، صاحب المال من الفقير ، وصاحب المعرفة من الجاهل ، والصحيح من المريض .... إلى غير ذلك — كل هذه أمور تؤدى لا محالة إلى الاختلال فى توازن الجماعة .

والقرآن الكريم يريد لأفراد المجتمع أن يكونوا متوازنين بين رغباتهم الشخصية ومصلحة الاخرين ، ولأسره أن تكون متوازنة فى حقوقها وواجباتها ، ولجماعته أن تكون متوازنة كذلك فى رعاية أفرادها وفى علاقات بعضهم ببعض .

إذ رسالة القرآن الكريم فى أخلاقه هى رسالة التعادل والتوازن ، وهى لذلك رسالة الاطمئنان ، والاطمئنان هو السعادة .

مبادىء إنسانية من حياة الرسول

إن المبادىء الإنسانية هى التى ترسم السلوك المثالى فى حياة الإنسان . إنها المعانى التى إذا وصل إليها الإنسان كان مهذباً فى عشرته ومعاملته ، وكان له خلق الإنسان الحر الذى استطاع أن يتخلص من شهوته وأنانيته ، ومن تحكمها فيما يفعل أو يأتى به من عمل ، وكان له خلق الإنسان الكريم الذى أدرك قيمة نفسه فحافظ على وضعها البشرى ، ولم ينزل بها إلى درك أدنى ومنزلة أقل . حافظ على أن تبقى له القيادة فى الحياة ، كما أراد له الله ، حيث سخر له ما فى السموات وما فى الأرض فقال: وسخَّرَ لكُمْ ما فى السَّمَوَاتِ وما فى الأرْض جميعاً مِنْه [1] » .

وبغير ترسم الإنسان لطريق المبادىء الإنسانية لايستطيع أن يقود نفسه ، ولا أن يسود غيره مما فى الأرض والسماء ، ولا يكون عندئذ غيره مما فى الأرض والسماء أيضاً : مسخراً له .

والقرآن الكريم عندما وصف الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله : « وإنَّك لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيم [2] » — عبر عما كانت عليه حياته من السمو الإنسانى ، وعما اشتملت عليه من المبادىء والمستوى الرفيع فى التهذيب والسلوك.

ومن أجل ذلك تعتبر حياة الرسول صلى الله عليه وسلم — بجانب القرآن الكريم — مصدراً عملياً من مصادر التوجيه للإنسان المسلم ، كما تعتبر نموذجاً بشرياً للإنسان الفاضل الكريم.

حياة الرسول تطبيق عملى لوصايا القرآن :

وأخص ما كانت تتميز به حياة الرسول صلى الله عليه وسلم : أن خلقه كان

(١) الجاثية : ١٣ (٢) القلم : ٤

يحكى ما فى القرآن من تعاليم ووصايا . ولذا قالت عائشة رضى الله عنها : « كان خلقه القرآن » .. عندما سئلت عن خلقه الذى يتخلق به .

وإذن هناك صلة وثيقة بين القرآن وتعاليمه من جانب ، وبين حياة الرسول صلى الله عليه وسلم التى عاشها ، والتى دعا الناس أن يتأسوا بها من جانب آخر . وكان ذلك أمراً ضرورياً ، يحتمه أولا اختيار الله سبحانه وتعالى إياه لرسالته ، ويحتمه ثانياً كونه هو عليه الصلاة والسلام مبلغاً لهذه الرسالة وداعياً لها . فالله لم يختره لهذه الرسالة إلا حيث علم مكان نفسه من الطهر والصفاء ، وعلم تمكن المعانى والمبادىء الإنسانية فى نفسه . وهو نفسه صلى الله عليه وسلم لم ينجح فى دعوته وفى تبليغ الله إلا لأنه قد تمثلت فى نفسه مبادىء تلك الدعوة ، وإلا لأنه يسلك وفقاً لما كان يدعو إليه ، ولما كان يبلغه إلى الناس من مبادىء .

ولذا إذا تحدثنا هنا عن المبادىء الإنسانية فى حياة الرسول ، فإنها تلك المبادىء التى جاء بها القرآن الكريم ، والتى أمر هو بتبليغها للناس ، كى يكون سلوكهم فى الحياة سلوكاً إنسانياً مهذباً حراً كريماً .

وأخص ماجاء به القرآن الكريم : «وسَارِعُوا إلى مَغْفرة من ربّكم وجنّة عرضُها السّموات والأرضُ أُعدّت للمُتّقين . الذين يُنفقون فى السّرّاء والضرّاء ، والكاظمين الغَيظ والعافين عن النّاس ، والله يحبُّ المحسنين[1]» يقول القرآن الكريم ذلك فى وصف المتقين الذين أعد لهم الجزاء الأوفى فى الآخرة ، فيجعل من وصف هؤلاء المتقين أنهم يكظمون الغيظ عندما يُثارون ، وأنهم يعفون عن الناس إذا ما قدروا وتمكنوا من الثأر والانتقام منهم . وقد عرف عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه كان أسرع المؤمنين إلى كظم الغيظ ، وإلى العفو والصفح عمن يسىء إليه ، وفى الوقت الذى كان يمكن أن يأخذ بحقه

(١) آل عمران : ١٣٣ ، ١٣٤

ممن عفا وصفح عنه . فقد كان صلى الله عليه وسلم جالساً بين أصحابه إذ جاء أعرابى وأمسك بثوبه وجذبه جذباً عنيفاً حتى أثر الثوب فى عنقه وقال له : أعطنى يامحمد من مال الله الذى عندك ، فإنك لاتعطينى من مالك ولا من مال أبيك . فأثارت هذه الغلظة من كان جالساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهموا بالرجل ولكن الرسول الكريم الذى وصفه الله بأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم ، حال بينهم وبينه ، ثم قال للرجل : المال مال الله ويقاد منك يا أعرابى ، فقال : لا . قال : لماذا ؟ قال : لأنك لاتجزى بالسيئة السيئة ، فابتسم صلى الله عليه وسلم وأمر بأن يحمل له على بعير : شعير وعلى الآخر : تمر .

وكذلك أخص ما جاء به القرآن الكريم من مبادىء : رعاية حرمات النفس والمال ، والعرض . فالقرآن يقول فى حرمة النفس : « ولا تقتلوا النفس التى حرّم الله إلا بالحق [1] » ، ويقول فى حرمة المال : «ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل [2] » ، ويقول فى حرمة العرض : «ولا يغتب بعضكم بعضاً : أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه [3] » . يقول القرآن ذلك حاثاً المؤمنين على رعاية الحرمات ، وعلى الاحتفاظ لكل فرد بحقه فى الحياة يتمتع به آمناً مطمئناً ، دون أن يزعج فى نفسه ، أو فى ماله ، أو فى عرضه . وقد عرف عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان أشد المؤمنين رعاية للحرمات فى عمله وفى وصاياه . فعندما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فاتحاً ، ومكنه الله من أولئكم الذين آذوه واضطهدوه ، وتآمروا على قتله ، وأخرجوه من داره ، وظن هؤلاء أن الرسول لابد آخذ بثأره ، منتقم ممن أساء إليه وإلى أصحابه .. عندما مكنه الله منهم — سألهم ماتظنون : أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

---

(١) الأنعام : ١٥١ (٢) البقرة : ١٨٨
(٣) الحجرات : ١٢

هذان المبدآن اللذان إذا اقتنع بهما الإنسان ، وسار عليهما فى حياته — كان معبراً عن إنسانية مهذبة ، وعن مدى تمكن المستوى الإنسانى الرفيع من نفسه . فالنفس تواقة بحكم طبعها الحيوانى إلى أن تثأر عند المقدرة ، وإلى أن تعتدى على الغير عند استطاعة الاعتداء . فإذا تسامح الإنسان عند المقدرة على الانتقام ، وراعى حرمات الغير عند المقدرة على الاعتداء عليها — يكون قد حكم إنسانيته . . حكم عقله وحكم إرادته الإنسانية ، وأدرك أنه حر فوق شهواته الحيوانية ، وأنه كريم لاينزل بنفسه إلى مستوى الحيوان فى استخدام الغلات والطاقة الحيوانية ، عندما تكون له القدرة على ذلك .

وحياة الرسول عليه الصلاة والسلام ترينا مبادىء عديدة من المبادىء الإنسانية . ولكننا آثرنا التنويه بهذين المبدأين ، لأنهما الأمارة الواضحة على الحياة الإنسانية التى تقوم على المبادىء والمثل التى يسعى الإنسان إلى إدراكها وإلى تمثلها فى سلوكه وتصرفاته .

ونحن إذا أردنا أن نتأسى بخلق الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبخلق القرآن الكريم ، فعلينا أن نصفح عند المقدرة ، وأن نرعى حرمات الغير عند المقدرة على الاعتداء عليها كذلك . وبتأسينا بالرسول الكريم فى حياته ، نكون نحيى ذكراه فى نفوسنا وفى دعوته .

التضافر والتعاون

عن أبي هريرة رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« المؤمن مرآة المؤمن ، والمؤمن اخو المؤمن ، يكف عليه ضيعته ويحوطه من ورائه »

فى هذا الحديث :

يذكر الرسول عليه الصلاة والسلام : أن تعاون المؤمن مع المؤمن فى الجماعة الإسلامية يدور فى نطاقين :

(أ) فى نطاق معنوى ، هو التوجيه .

(ب) وفى نطاق آخر مادى ، هو المشاركة فى حفظ ما به قوام العيش ، والمشاركة فى دفع الإيذاء .

التعاون فى نطاق التوجيه :

ففى النطاق الأول وهو نطاق التوجيه : عبر الرسول عليه الصلاة والسلام تصويراً للصلة ومدى وجوب التعاون بين المؤمنين : بأن المؤمن مرآة المؤمن . فلكى يدرك المؤمن نفسه ويقف على حقيقة ذاته ليستمر فى طريقه فى الحياة أو يعدل فى سيره فيها له أن يسأل آخر فى جماعته عن حال نفسه . كما ورد عن عمر رضى الله عنه أنه كان يقول لحذيفة رضى الله عنه هل ترى فىّ شيئاً من علامات النفاق ؟ فيقول : لا والله ياأمير المؤمنين . فالمؤمن بالنسبة لمؤمن آخر يشبه مرآته . يرى فيها حال نفسه على الحقيقة ، لأنه أمين عليه ، ومبتغ خيره ، وعليه وزر التقصير فى حقه .

التعاون فى النطاق المادى :

وفى النطاق الثانى وهو نطاق المعاونة بين المؤمنين حدد الرسول صلى الله عليه وسلم هذا النطاق بكف الأذى وحفظ مابه قوام الإنسان ومعيشته من التلف

والضياع سواء ذلك فى حضرة المؤمن الآخر المهدد بذلك وشهوده ، أو فى غيبته ومن ورائه .

والمؤمن ينتظر من أخيه المؤمن أن يوجهه فى تصرفاته وسلوكه فى الحياة توجيهاً سليماً نافعاً . وذلك بأن يذكر له ماقى تصرفاته من استقامة وما فيها من نفع ، وما فى طبعه وخلقه من حسن أو سوء . وهو إذ يعرف ذلك منه يثق به تمام الثقة فلا يظن به السوء والانحراف فى التصوير . لأن المفروض فى المؤمن بالنسبة لأخيه أنه مرآة له . وكما أن المرآة لاتنقل فى تصويرها للشيء زيفاً أو دخلا ليس فى طبيعة هذا الشيء ، فكذلك المؤمن فى تصويره لحال أخيه : مخلص فى هذا التصوير ، بعيد عن الغرض والهوى ، والزيف والدخل . فالصورة التى يرسمها لأخيه المؤمن صورة نقية صافية .

المؤمن ينتظر من أخيه المؤمن أن يعاونه فى دفع الأذى عنه فى نفسه أو ماله : وبالأولى ألا يكون هو مؤذياً له ولا متسبباً فى إيذائه . يدفع الشر عنه قبل وقوعه ، ويحول بينه وبين أن يتعرض ماله للتلف أو نفسه للضرر . وهو إذ يؤدى له هذه المعاونة يؤديها له فى غيبته وحضوره ، وفى غيبته يكون أداؤها له آكد وأوجب . لأن طالب النصرة فى هذا الحال يكون أدعى ، ومن جانب آخر يكون تصرفه عندئذ مطابقاً لما وصف به من أنه مؤمن .

اثر الايمان فى ترابط الجماعة :

وشأن المؤمن مع المؤمن هو هذا الشأن إذن : الإخلاص فى إعطاء المشورة والتوجيه ، والمشاركة فى دفع الأذى والضرر ، وذلك منتهى ماينتظر فى صلة إنسان بإنسان .

المؤمن إنسان آمن بالله واليوم الآخر . وبسبب إيمانه بالله واليوم الآخر ترتب منه الرسول عليه الصلاة والسلام أن يكون أخاً لغيره فى جماعة المؤمنين ،

وحدد مظاهر الأخوة بين الاثنين بالإخلاص فى التوجيه والمشاركة فى دفع الأذى والضرر ، على نحو ماجاء فى الحديث الشريف .

والإيمان إذن هو مصدر الصلة بين مؤمن وآخر على هذا النحو . هو الباعث بين أفراد الجماعة على أن يكونوا فى علاقاتهم بعضهم مع بعض على نحو ترتفع فيه الأنانية الفردية وطغيانها ، وتسود فيه المعاونة والمشاركة لخيرهم جميعاً .

إن نتيجة الإيمان بالله فى نفس الإنسان المؤمن هى أن يكون باستمرار فى وضع يتيح له أن يعاون غيره وإن لم يطلب منه المعاونة ، وأن يكون درعاً لغيره يقيه الشر والإيذاء ، وإن لم يعلم هذا الغير بما عزم عليه أو بما قدمه فى هذا السبيل . يجب أن يكون فى وضع يكف فيه عن أخيه المؤمن ضيعته ، ويحوطه من ورائه .

والإيمان بالله لذلك معنى نفسى يملك على النفس أمرها فى الحياة ، وأمر سلوكها فيها وفقاً لما جاء به الوحى ، وكلف بتبليغه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة .

إن العلاقة بين إنسان وآخر — التى يترتب عليها أن يكون كل واحد منهما مرآة للآخر — ليست هذه العلاقة العادية بين الإنسان والإنسان ، وليست هى العلاقة التى تكونها فلسفة أو قانون وضعى . وإنما هى وليدة الإيمان بالله وحده .. وليدة الروح التى تأثرت بقدرة الخالق ، وبخشيته فى الدنيا ، وبانتظار لقائه فى الآخرة .

إن الإيمان بالله هو الذى يخلق معنى « الجماعة » فى نفس الإنسان ، وهو الذى يجعل الإنسان على أن يعترف بحق الإنسان فى الحياة والوجود ، وهو الذى يحول الإنسان من أنانى جامح تتحكم فيه أنانيته إلى مشارك غيره فى الحياة فى أى مجال فيها : فى الوجدان ، أو فيما وراءه من مادى الحياة ومعنويها .

ويروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : حق

المسلم على المسلم ست : قيل ماهن يارسول الله ؟ قال : « **اذا لقيته فسلم عليه ، واذا دعاك فاجبه ، واذا استنصحك فانصح له ، واذا عطس فحمد الله فشمته ، واذا مرض فعده ، واذا مات فاتبعه** » .

فالرسول عليه الصلاة والسلام يجعل المشاركة الوجدانية فى مثل هذه الأحوال حقاً للمسلم على المسلم . لأن الإنسان فى نظر الإسلام قبل أن يتأثر بجانبه المادى من الأكل والشرب وأحوال المعيشة المادية ، يتأثر بالإحساس والشعور .

ويروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أيضاً أنه قال : « **ثلاث من كن فيه ستر الله عليه كتفه وادخله جنته : رفق بالضعيف ، وشفقة على الوالدين ، واحسان الى المملوك** » . كما يروى عبدالله بن عمر رضى الله عنهما عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« **المسلم اخو المسلم : لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان فى حاجة اخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة** » .

فعلى المسلم أن يرعى غيره .. على المسلم أن يعترف بأن لغيره حقاً عليه ، هو أنه أخ وشريك .. على المسلم أن يتصرف مع غيره طبقاً لما اعترف له به من حق الأخوة والشركة :

(أ) يحول دون أضراره .

(ب) ويشاركه فى سروره وأحزانه ، يترفق به فى ضعفه وعجزه .

(جـ) ويمد له يد المعونة عند الحاجة .

(د) ويقدم له الرأى والمشورة ...

إلى غير ذلك مما أوجبه الإسلام على المؤمن به نحو أخيه المؤمن فى الجماعة .

وتدعيما للصلات من جانب ، ونقلا للإنسان من حال الأنانية إلى حال الجماعة من جانب آخر .

الإنسان المؤمن إيجابى نحو نفسه بأن يعمل لينقل نفسه من حال تحكم الأنانية فيه إلى حال شعوره بالغير وإقراره بالمشاركة فى الحياة .

وإيجابى نحو غيره ، فى أسرته الصغيرة أو فى جماعته كلها ، بأن يعمل لغيره ماتستدعيه حالته . وأجمل ذلك القرآن الكريم فى التعاون على البر والتقوى وعدم التعاون على الإثم والعدوان . يقول الله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان [1] » .

ولأن الإيمان هو منشىء علاقة الأخوة والمعاونة بين الإنسان والإنسان ، عبر الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث بـ « المؤمن » عن الإنسان الذى انتظر منه أن تكون علاقته بغيره علاقة المرآة الصافية والدرع الواقى . .

وهذا الحديث الشريف إذ يطلب من الجماعة المؤمنة أن تكون متكتلة متضافرة على دفع الأذى وصنع الخير ، متعاونة على أن تقى نفسها شرور الإنسان العادى وأن تخفف من أحداث الحياة بينها ـ هذا الحديث إذ يطلب ذلك فالقرآن الكريم يضيف إليه أن الجماعة الإسلامية لا يصح أن تقف فى عداء الجماعات الإنسانية الأخرى ، طالما لا يكون هناك اعتداء عليها . فهو إذ يقول : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا [2] » .. حدد الهدف من تعدد الجماعات ـ وفيها الجماعة الإسلامية ـ بالتعارف لا بالنفرة أو العداء .

الإسلام يحارب أن يكون الإنسان عدو نفسه باسترساله فى أنانيته ، وأن يكون عدو جماعته بتخليه عن المعاونة فيه برأيه أو جاهه ، أو ماله ، أو نفسه ..

وأن تكون جماعته معتدية على الجماعات الإنسانية الأخرى . لأنها إذا اختلفت معها فى التوجيه فهى مشاركة لها فى الإنسانية .. وتأمل أن تكون مواخية لها فى الإيمان .

---

(١) المائدة ٢٥ . (٢) الحجرات : ١٣ .

التـــواد

يقول الله تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِن أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون[1] » .

القرآن هنا فى هذه الآية يوجه الحديث إلى الناس جميعاً . والقربى فى الإنسانية التى جعلها بينهم من الصفات المتجانسة فيهم هى التى يجب أن تترتب عليها المودة والرحمة . فأساس المودة بين الناس موجود ، وهو أن بعضهم قريب من بعض ومتجانس مع الآخرين فى صلات الإنسانية . فإذا نميت هذه الصلات الإنسانية بين الناس كانت المودة بينهم ، وكانت الرحمة فيهم .

ولا يحتاج الأمر فى تنمية هذه الصلات ، حتى تكون مودة وتكون رحمة ، إلا إلى مراعاة هذه الصلات نفسها فى الحديث .. أو فى التصرف .

والقرآن نفسه قد تكفل بتوضيح الطريق إلى مراعاة هذه الصلات ، سواء فيما ينطق به الإنسان أو ما يأتى به من فعل . فيقول جل وعلا : « وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا التي هِيَ أَحْسَنُ[2] » ، ويقول : « وإذا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أو رُدُّوهَا ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا[3] » . ينصح المؤمنين بأن تكون ألفاظهم فى الحديث عموماً ألفاظاً منتقاة مهذبة ، وأن تكون معبرة عما يحسن إلى العلاقات دون مايسىء إليها . كما يكون ردهم التحية على من يحييهم ، كائناً من كان ، إما بأحسن مما حيوا أو على الأقل على نحو ما حيوا به . ويبلغ اهتمامه بهذا النصح إلى حد أن يعقب عليه بقوله : « إن الله كان على كل شىء حسيباً » .

---

(١) الروم : ٢٥ .
(٢) الاسراء : ٥٣ .
(٣) النســاء : ٨٦ .

فرد التحية بالمثل أو بأحسن من المثل ، كفيل بتنمية الصلات البشرية حتى تصبح هذه الصلات مودة ورحمة بين الناس .

وكذلك يقول القرآن الكريم : «ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم[1] » .

وهذا القول يواجه به الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكنه يقصد به إلى أن يكون سنة وطريقاً لتعرف المؤمنين جميعاً : «ولا تستوى الحسنة ولا السيئة» .. أى لا يستوى أثر الحسنة فى النفوس البشرية ولا أثر السيئة فيها . هناك موازنة بين الأثرين : أثر الحسنة على النفوس : حسن وجميل ، وأثر السيئة عليها : سىء وقبيح . وإذا كان أثر الحسنة هو السيطرة على النفوس وامتلاكها ، وأثر السيئة هو تنفيرها وابعادها ، فدفع المسائل والمشاكل بين الناس وتصريفها بالطريق التى هى أحسن وأجمل ، هو العلاج الأولى لحل هذه المشاكل . وعندئذ لا تحل هذه المسائل والمشاكل فقط ، ولا تشعر النفوس بعدئذ بالراحة فحسب بل ستتحول العلاقات المتنافرة من قبل إلى صداقات قريبة ، وتزداد المودة بين الناس .

ما هو التواد ؟

هناك أسس للمودة بين الناس . ولكن هذه الأسس يجب أن لا يرعاها طرف دون طرف ، بل كل إنسان عليه أن يرعاها وينميها . وعندئذ تكون المودة تواداً . فإذا قدم كل مودته للآخر ، وتوادت الأفراد فى الجماعة كانت المحبة والرحمة . ورسالة السماء هى فى إعداد الناس إلى شيوع المحبة والرحمة بينهم .

يروى عمر رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قوله : « **ان من عباد الله لاناساً ما هم بانبياء ولا شهداء ، يغبطهم الانبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى . قالوا يا رسول الله اتخبرنا من هم ؟ قال : هم قوم تحابوا بروح الله على غير ارحام بينهم ، ولا اموال يتعاطونها ، فوالله ان وجوههم لنور ، وانهم لعلى نور** » .

---

(١) فصلت : ٣٤ .

التواد ليس هو تبادل المجاملة فى نفاق ، ولا تبادل الثناء فيما لا يوجب الثناء . هو إشعار الإنسان بأنه قرين الإنسان ، هو دفع الأذى عن الإنسان ، هو صنع المعروف للإنسان . التواد هو التعاطف ، هو تذاكر الروابط الانسانية بين الناس.

دائرة التواد ليست دائرة محددة ، وهو كذلك مظهر بين الناس غير محدد : فالمواساة توادد ، وتبادل التحية توادد ، والرعاية فى الحرمات توادد ، وحسن المعاملة والعشرة توادد .

تعاليم الاسلام وسعادة البشر .

ونحن إذ نتحدث عن التعاون فى البر ، ونتحدث عن التوادد ، ونتحدث عن إكرام الجار ، ونتحدث عن الإحسان بين ذوى القربى ..إذ نتحدث عن هذا ومثله إنما ننقل تعاليم الإسلام فى ذلك . لأن الإسلام يريد للناس أن يظلوا فى مستوى الإنسانية ويعيشوا فى الروابط المشتركة بينهم . يريد لهم طمأنينة النفس ويدفع عنهم القلق والفزع . ومهما تقدم الإنسان فى العلم ، ومهما قدم العلم للانسان من خدمات فإن شيئاً واحداً لا يستطيعه وهو حمل الناس على الاستقرار ودفع شبح الخوف عنهم . وللإنسان أن يفاخر بالذرة وبعصرها ولكنه لا يستطيع أن يفاخر بأنه وحده بدون معونة من الله ، يستطيع أن يمكن للسلام فى الأرض .

للإنسان أن يؤله العلم والذرة ، وأن يضفى على العلم والذرة طابع الدين والعقيدة ، ومع ذلك سيحتاج الناس إلى دين الله ، وسيبقى دين الله وليس دين الإنسان — هو الدين الحق : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون[1] » .

---

(١) الصف : ٩ .

رعاية الجوار

عن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ قال :

« ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت انه سيورثه » .

١ — عنى الإسلام بالجانب الاجتماعى فى حياة الجماعة الإنسانية عناية لا تقل عن عنايته بصلة الفرد بربه : فأوصى برعاية الغنى للفقير ورعاية العالم للجاهل ورعاية الصحيح للمريض . وهو إذ يطلب هذه الرعاية قد يشدد فى طلبها إلى درجة الالزام والتحتيم : ولم يقصد من ذلك أن تقترب النفوس من بعضها فحسب ، فتقترب نفوس ذوى الحاجات من ذوى اليسار ، ونفوس الجهلاء من العلماء ، والمرضى من الأصحاء . لم يقصد ذلك فحسب حتى تخف حدة الفجوة بين النفوس ويقل الحقد والحسد ، بل هدف إلى ماوراء ذلك : هدف إلى أن تسير الحياة الاجتماعية سيراً طبيعياً إلى الأمام ، وأن تخف آلام البشرية وأخطاؤها وأن تسود الطمأنينة المجتمع الإنسانى ، ويصبح كل فرد عاملا ومنتجاً فى هذه الحياة: كل على حسب استعداده وطاقته البشرية . كما هدف إلى إيجاد وحدة متماسكة من الأفراد ، لا تنفذ إليها سموم الفرقة ولا عوامل الضعف التى تأتى غالباً من الفروق الواضحة بين الطبقات والأفراد ، وانعدام روح المشاركة عندئذ بينها وبين بعضها .

أوصى الإسلام بالزكاة وبالإحسان. ولم يقصر الزكاة والإحسان على المال . وإنما تجاوز بهما إلى ماذكرنا فى مجال العلم والصحة . كما جعل دائرة النفع بالزكاة والإحسان غير خاصة بالقريب أو البعيد .

٢ — ولأجل أن الإسلام ينشد مجتمعاً فاضلا متماسك البناء لا يتأثر بالهزات النفسية والحزازات الشخصية — طلب العناية بالجار على وجه أخص ومشاركته فى سرائه وضرائه وأحزانه وأفراحه : يقدم له العون المادى والأدبى إن استطاع إلى

ذلك سبيلا . يقدم له المشورة إن احتاج إليها فى أزماته ، كما يؤثره بصنوف المساعدة المادية إن دعت حاجته إلى مثل هذا المساعدة . والحديث النبوى الشريف إذ يعبر عن العناية بالجار بقوله : مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه — يفيد مدى الاهتمام به وإلى أى حد يجب التوفر على معونته حتى لكأنه أحد أفراد الأسرة الخاصة التى فرض لها الميراث فيما يتركه رب العائلة . وأصحاب الميراث هم عادة الأفراد الذين تتركز فيهم عناية رب الأسرة فى حاضرهم ومستقبلهم .

هذه العناية بالجار هى السبيل الأول إلى تكوين النواة الأولى فى وحدة الجماعة . ولذا إذا قامت الوحدة بين الجار وجاره على أساس من المعاونة والمشاركة النفسية والوجدانية والمادية — كانت الجماعة التى تتكون من جيران بينهم هذا التماسك على أشد ماتكون قوة واتحاداً ، وأكثر ما تكون إيجابية فى حياتها الخاصة والعامة .

إذا التقى الجار بجاره فحياه ، وإذا أصيب فواساه ، وإذا سر فشاركه فى مسرته ، وإذا أزم فعاونه فى حل أزمته — إذا حصل كل ذلك وأمثاله من الجار لجاره لاشك أن الفوارق الشخصية بعد ذلك بينهما لاتطغى على عوامل الوفاق والوئام ولا تؤثر فى السير معاً لغاية واحدة : هى دفع الأذى عن كليهما ، وجلب المسرة لهما ولأفراد أسرتيهما .

٣ — هناك بعد هذه العلاقة المرغوب فيها من الإسلام بين الجار وجاره وهى العلاقة التى تكاد تصل بهما إلى جعلهما أفراد أسرة واحدة : علاقات أخرى تختلف فى بغض الإسلام لها شدة وضعفاً :

هناك علاقة الحيدة بين الجار وجاره ، لايحاول أحدهما أن يتصل بالآخر : إذا التقيا لايكاد ينظر أحدهما إلى الآخر فضلا عن أن يقرئا بعضهما السلام . ويجوز أن يكون وقت فرح أحدهما هو وقت حزن الآخر . لا يشتركان فى شىء ما : سوى

أنهما يتجاوران فى المسكن ، أو كل منهما يعرف الآخر بشخصه لا بقلبه وعواطفه .

وهناك علاقة التجاهل أو الاستخفاف : يصنع كل من الجار وجاره ما يؤذن بأن كل واحد منهما يعيش وحده فى منطقة خاصة به . لا يرعى أن هناك مخلوقاً من الإنسان آخر يشاركه فى الجوار ، وله عواطف الإنسان وإحساسات البشر : إذا سمع المذياع مثلا أطلق العنان لصوته إلى آخر مراحل القوة فيه . لا يتخير من الأوقات لسماعه إلا تلك التى اعتاد أن يستمع فيها إليه ولو كانت أوقات الشدة لجاره أو أوقات الراحة التى اعتاد الناس أن يروحوا على أنفسهم فيها وقت الظهيرة أو آخر الليل . وإذا حاول أن ينظف مسكنه فلا بأس لديه من أن يكون ذلك على حساب نظافة مسكن الجار وإحساساته وراحته وهدوئه . وهكذا كل ما يحصل من الجار لجاره بناء عن تجاهل أحدهما للآخر أو الاستخفاف بوجوده .

وهناك علاقة الاعتداء على الجار وإيذائه عن قصد وإرادة ، سواء أكان ذلك لسيطرة معنى الاعتداء على أحد الجارين ، أو تنفيساً للمعانى النفسية البغيضة الكامنة فيه من حقد وحسد وأمثالها .

* * *

فإذا كانت مشاركة الجار لجاره إلى حد اعتبار أحدهما الآخر كأى فرد من أفراد أسرته الخاصة هى التى يطلبها الإسلام من المسلمين ، والمؤمنين بتعاليمه — فإن المواقف الأخرى من الجار تجاه جاره يختلف الحكم عليها فى الإسلام حسب مافيها من مخالفة لهذا الذى طلبه ، وحسب ماتنطوى عليه من إيذاء واعتداء .

إن الإسلام لا ينشد إلا سعادة الناس : وهى طمأنينتهم فى معيشتهم وأنهم لخير أنفسهم فى حياة جماعتهم . ورعاية الجار لجاره على نحو مايوصى به هذا الحديث النبوى الكريم دعامة قوية فى تبليغ الناس هدفهم فى هذه الحياة . وهو : الطمأنينة فى العيش والعمل المثمر فى الحياة .

المروءة

يروى عن ابن عباس رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :
« **تبسمك فى وجه اخيك صدقة ، وامرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وارشادك الرجل فى أرض الضلال لك صدقة ، وبصرك للرجل الردىء البصر لك صدقة ، واماطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة ، وافراغك من دلوك فى دلو اخيك لك صدقة** » .

فى هذا الحديث الشريف تعرض الرسول صلى الله عليه وسلم لثلاثة أنواع من التصرف الإنسانى ، عدها جميعاً صدقة ، وكلها وراء الفروض والتكاليف الدينية :

١ — النوع الأول : لقاء غيرك لقاء هشاً ، يدل على الانشراح والسرور بمقابلته ، وهو نوع يتصل بوجدان الإنسان وعواطفه .

٢ — والنوع الثانى : إرشادك غيرك وتوجيهه لما فيه مصلحته وهدايته ، وهو يتصل بحكمة الإنسان الموجه ومعرفته .

٣ — النوع الثالث : تقديمك المعاونة العملية لمن هو فى حاجة إليها ، تبتدىء من مصاحبة ردىء الرؤيا أو عاجز البصر فى طريقه . . إلى تنقية ما يؤذى الناس فى طريقهم العام . . إلى البذل وإشراك غيرك فيما هو لك لحاجته إياه ، وهو يتصل بعمل الإنسان وفعله .

فالإنسان يستطيع بأى جانب فيه من جوانبه الثلاثة : الوجدان ، والإدراك ، والعمل ، أن يكون معاوناً على تيسير أمر غيره ، ومساعداً على تذليل العقبات فى طريق حياته واطمئنانه فيها . سواء أكانت عقبات مادية أو معنوية .

فإذا عاون غيره على هذا النحو ، لا بدافع علاقة القرابة بينهما ، ولا لصلة للمعرفة والجوار مثلا ، بل للرابطة الإنسانية العامة — كان هذا المعين ذا فضل ،

وعد عمله عندئذ صدقة ، لينال جزاءها من الله وحده ، وعد هو ذا مروءة ، وإنسانية لأنه لم يصدر فيما أتى به من تصرف معنوى أو مادى عن تكليف كلف به من قبل الشارع ولا عن داعى القرابة والعلاقة القريبة، بل عن المشاركة والأخوة فى الإنسانية عامة .

وهكذا كل تصرف ، وكل سلوك من الانسان قصد به وجه الإنسانية ، ودفع إليه بدافع إنسانى — كان مروءة . ويفرق بين هذا العمل وأداء ما كلف به الإنسان لأنه وجب عليه من قبل الشارع ، وإن انطوى أداؤه على عمل إنسانى أو خدمة إنسانية .

فصاحب المروءة إنسان بلغت فى نفسه المشاركة الانسانية مبلغاً يدفعه إلى معاونة ذى الحاجة من صحته وجاهه ، وماله ، ومعرفته ، وعواطفه الوجدانية لذات الإنسانية ، لا للقرابة والمعرفة كدافع ، ولا للرغبة فى جزاء الدنيا من حسن الصيت كنتيجة منتظرة له .

والمروءة عمل إنسانى وراء التكاليف والفروض الشرعية ، وتدل على أن صاحبها خطا خطوة أخرى بعد الطاعة لأوامر الله ونواهيه ودخل فى معنى الإنسان المهذب المثالى . ولهذا يروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : **« من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون اخيه »** .

ويروى عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : **« ما أكرم شاب شيخا لسنه ، الا قيض الله له من يكرمه عند سنه »** .

العبادات والمروءة .

إذا كانت المروءة عملاً إنسانياً بعد التكاليف والفروض الشرعية فالعبادات فى الاسلام : من صلاة ، وصوم ، وزكاة ، وحج ، مقدمات لتهيئة الإنسان لأن يكون ذا مروءة ، لأنها تحمل على تخفيف الأنانية وأثرها فى نفسه ، وعلى إندماجه

بالتالى فى الجماعة ، فتقوى الروابط بينه وبين غيره . ويومئذ يسير فى طريقه إلى المروءة ، والسلوك طبقاً المعنى الإنسانى المشترك : الصلاة توجه الإنسان إلى الله ، وعن عدد مراتها فى اليوم وفى صورتها المعروفة تغرس فى نفس الإنسان العابد غاية أخرى أسمى وأدوم ، وهى رضاء الله سبحانه . وبذلك تخف الدنيا وتخف مطالب النفس منها . والصوم فريضة أخرى لنفس الغاية من الصلاة ، ولكن عن طريق الامساك والحرمان المباشر من شهوات النفس ورغباتها فترة متكررة فى حياة العابد . والزكاة فريضة تحمل على التنازل بالفعل عن جزء مما يملك العابد المزكى لغيره فى جماعته . وبذلك يشعر شعوراً عملياً بغيره وبإخوته . والحج فريضة مشاركة للزكاة أيضاً فى تمكين المعنى الجماعى فى نفس العابد وأخوة الإنسان له .

وهذه العبادة الإسلامية فى صورة فرائضها الأربع إذن : تنمّى الإحساس القوى بمشاركة الغير للإنسان العابد فى الوجود والحياة معه ، وتدفع بعد هذا الإحساس إلى معاونته عندما تدعو الضرورة للمعاونة والمشاركة الإيجابية .

المعاملات الاسلامية والمروءة :

وأيضاً وصايا الإسلام فى المعاملات المختلفة : فى المسائل المالية ، أو فى علاقات الأسرة ، أو فى الصلات العامة بالجماعة ، وهى الشعب والأمة — تهدف إلى دفع الإنسان إلى أن يكون فى سلوكه إنسانياً : يصدر فيه عن روح المشاركة لغيره . وهذه الروح تتمثل أولا وقبل كل شىء فى تجنب الضرر والغبن عن كل من الطرفين المتعاملين . فإن أنتج عقد التعامل بعد ذلك خيراً لهما أو لأحدهما كان فضلاً وإحساناً ، وكان صاحب الفضل والإحسان منهما ذا مروءة ، وكان مجزياً بجزاء مماثل عند الله سبحانه .

وليس من المروءة ، ولا من الإنسانية . ولا من التهذيب البشرى أن يكون عمل الانسان للإنسان هو المكيدة أو الإيقاع ، والإيذاء .

وليس أيضاً من المروءة أن يقف الانسان على الحياد ، أو موقف المتفرج من مأساة إنسانية بسبب الجوع والفقر أو العجز ، أو بسبب انتهاك حرمة المال والملك ، أو انتهاك حرمة العرض . ومع أن ذلك ليس من المروءة فقد ذكر الرسول ﷺ أنه سيلحق به أثر موقفه هذا فى حياته : يروى عن جابر رضى الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « **ما من امرىء يخذل امرأ مسلما فى موضع تنتهك فيه حرمته ، وينتقص فيه من عرضه ، الا خذله الله فى موطن تنتهك فيه حرمته ، وينتقص فيه من عرضه ، وما من امرىء ينصر مسلماً فى موضع ينتقص فيه من عرضه ، وينتهك فيه من حرمته ، الا نصره الله فى موطن يحب فيه نصرته** » .

* * *

إن المروءة تبدو فى التسامح والعفو عن المآخذ والخصومات . وصاحب المروءة هو الذى يمد يده ، مصافحاً ، أو منفقاً ، أو معيناً مساعداً . . هو الذى يؤاخى ويؤازر . إن فعلتم ذلك كان لكم عند الله ثواب الفضل والاحسان ، فوق ثواب طاعتكم وإيمانكم بالله جل جلاله .

إنكار الذات

عن أبي موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : « **جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فاى ذلك فى سبيل الله ؟ قال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله** » .

١ — يروى بعض شراح الأحاديث ان الرجل الذى جاء إلى رسول الله ﷺ هو لاحق الباهلى . ولاحق الباهلى إذ يعدد فى قوله هذه الدوافع التى تدفع الانسان إلى المشاركة فى القتال : بالرغبة فى تحقيق النفع المادى من حصوله على نصيب فى الغنيمة ، أو تحقيق النفع الأدبى من حديث الناس عنه وذكره ضمن من يذكرون من المجاهدين المكافحين ، أو من الرياء واتقاء لوم الناس له — هو إذ يعدد الدوافع بهذه الأنواع الثلاثة لم يرد أن يستقصى كل الأسباب النفسية التى تحمل الإنسان فى واقع الأمر على أن يدخل صفوف المقاتلين أو المجاهدين، بل قص منها فقط ما يغلب على الإنسان فى العادة إذا ما أقدم على الاشتراك فى مثل هذا العمل . وكأنه أراد أن يذكر الأمثلة الشائعة فى هذه الحال ليعرف فحسب من رسول الله ﷺ على وجه التحديد : نوع الدوافع الذى يكون به الانسان خالصاً لوجه الله ، وفى سبيل الله .

وإجابته ﷺ بقوله : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله ، لا تقف بها أيضاً عند حد القتال من أعمال الإنسان ، بل تشير هذه الإجابة إلى أى عمل من أعمال الإنسان يخلص من الأنانية وينطوى على إنكار الذات فهو عمل فى سبيل الله . لأن أعمال الناس دائرة فى غالبيتها بين أن تكون لتحقيق أهداف خاصة وهى الأهداف الفردية الشخصية التى تحمل عليها الأنانية وحب الذات ، أو لتحقيق مصلحة عامة تتجاوز مصلحة الفرد إلى مصلحة أفراد جماعة معينة أو مصلحة

الناس كافة . وسبيل الله فى العمل هى تلك السبيل الموصلة إلى خير الجماعة ، وهى تلك السبيل التى لا تعرّج بالإنسان لتبليغه أمانيه وآماله الشخصية . إن حياة الإنسان صراط بين طرفين متقابلين : أحدهما قريب منه والآخر بعيد عنه . أما القريب فهو مطالب الذات ، وأما البعيد عنه فهو وجه الله أو ما اصطلح عليه عرف علماء النفس والاجتماع بخير الإنسانية أو مصلحة الجماعة العامة .

وهـذا الحديث النبوى الكريم الذى تضمن سؤال السائل وإجابته عليه الصلاة والسلام يصور هذين الطرفين ، ويحدد ما لله وما لغير الله . وما لله فهو أبقى وما لغير الله فهو زائل حقاً . وكأن ذكر القتال فى الحديث مثل لعمل من الأعمال التى يأتى بها الإنسان والتى تختلف الدوافع النفسية إليها . ومهما اختلفت تلك الدوافع فهى ترجع إلى نوعين لا ثالث لهما : إما المصلحة الذاتية الفردية وإما للمصلحة العامة وهى جهة القربى إلى الله . وبقدر ما ينطوى النوع الأول منهما على حب الذات وسيطرة النزعة الفردية ، بقدر ما يتوقف الثانى على إنكار الذات وكبت الرغبات الشخصية .

٢ — وإن جماعة من الجماعات الإنسانية تقوم أعمال الأفراد فيها على الأنانية وحب الذات لهى جماعة واهية البناء ضعيفة الترابط ، إذ أنها عندئذ جماعة مشتتة النزعات مفرقة الأهواء والأغراض . وأفرادها لذلك لا يجتمعون على هـدف واحد . وإذا لم تجتمع أفراد الجماعة على هدف واحد فقوة الكفاح والسعى الإنسانى فى هؤلاء الأفراد ستتجه حتما إلى الخصومات الفردية ومحاولة غلبة الأفراد بعضهم على بعض ، بدل أن تتجه هذه القوة الدافعة إلى التعاون والتآخى .

وإن جماعة يسيطر على أفرادها إنكار الذات فى الأعمال لهى تلك الجماعة التى أخلصت النية فى سعيها فى الحياة وتمكن من نفوسها الإيمان وحب المثل العليا . وهى حتماً واصلة إلى هدفها ، وهدفها لا يكون إلا الخير لجميع أفرادها :

« وَعَدَ اللهُ الذينَ آمنوا منكم وعملوا الصَّالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » .

٣ — إن الفساد الذي استشرى في الحياة المصرية ، وإن التصدع والانفكاك الذي أصاب بناء الأمة ، وإن الخصومة والبغضاء التي تمكنت من نفوس الطوائف والأفراد — ليرجع ذلك كله إلى سيطرة الاتجاه الفردي في الشعب وتغليب الأفراد مصالحهم الشخصية على المصلحة العامة . وإن الاستعمار الذي طال أمده لم يجد له أرضاً خصبة يبذر فيها بذور الفتنة والشقاق سوى حب الذات الذي طغى على كل الاستعدادات الفطرية في الإنسان بين أفراد الأمة .

لم تنقسم الأمة إلى طوائف وشيع ؟ . لم تتقاتل الأحزاب السياسية على الحكم فيما مضى ؟ لم تنقطع أواصر الاخاء في الدين واللغة والوطن بين أفراد المجموعة الواحدة ؟ لم تتحكم الخصومات النفسية الفردية وتسيطر الروح القبلية بين أبناء الشعب الواحد ؟. جواب ذلك في حب الذات والأثرة .

الانقسام والتشيع ، والخصومات والحزازات النفسية بين الأفراد ليست هي فحسب نتائج حب الذات والأثرة ، بل من نتائج ذلك انحناء الرؤوس والهامات لصاحب الكلمة والسلطان دون أن يكون له حق الطاعة على الناس ، كما أن الخوف من ذكر المثل والمبادىء فضلا عن العمل لتحقيقها إحدى هذه النتائج .

٤ — إن هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : تضحية في سبيل المبدأ ، وإنكار للذات في العمل ، وإخاء في سبيل الله والمصلحة العامة .

صدق رسول الله ﷺ : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله .

العزة والكرامة

يروى أبو هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « **ليس الغنى عن كثرة العرض (اى ناشئاً عن كثرة عروض الدنيا ومتاعها) ؛ ولكن الغنى غنى النفس** » .

ويقول الله جل شأنه : « ولله العزة ؛ ولرسوله ، وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون[1] » .

لله العزة والمنعة والقوة ، ولرسوله العزة والمنعة والقوة ، وللمؤمنين صدقاً : العزة والمنعة والقوة .

لله العزة ، لأنه خالق الوجود كله . ومن أجل أنه خالق الوجود كله كانت رسالته للبشر كافة ، لا تميز فيها لفريق دون فريق ، ولا لشعب دون شعب هى تمثل مصلحة الناس جميعاً ، كما تمثل غناه عنهم جميعاً .

ولرسوله العزة ، لأنه قام بتبليغ هذه الرسالة ، وامتثل لتعاليمها ، وابتعد فيما بلغ وفيما امتثل ، عن الهوى والحزبية ، وعن القرابة والمحسوبية ، فكان عمله صورة لقوله ، ولم ينطق فى قوله عن هوى ، إن هو إلا وحى يوحى .

اول وسائل العزة : التغلب على الهوى

وللمؤمنين حقاً العزة ، لأنهم أولئك الذين اقتدوا فى سلوكهم وفى طاعتهم لرسالة الله ، برسوله المصطفى ﷺ . لم يبعدهم هوى عن الطريق المستقيم ، ولم تتحكم فيهم النفس الأمارة بالسوء . واصبحوا بهذا أعزاء ، وأصحاب منعة وقوة . استمدوا عزتهم من إيمانهم — الذى لا تخلخل فيه — بالله وبرسالته ، وانتزعوا قوتهم ومنعتهم من التغلب على هواهم وشهواتهم ؛ وحزبية الإنسان ومحسوبيته .

---

(١) المنافقون : ٨ .

وتغلب النفس على هواها إذن عزة ، وترفع النفس عن دنایاها قوة . وسيطرة النفس على حاجاتها غنى وثروة . وليس الغنى إذن هو كثرة عروض الحياة الدنيا من مال وجاه وولد ، وإنما الغنى غنى النفس ، وفى غناها عزتها وقوتها .

وبهذا الوضع يصبح المؤمن عزيزاً . لأنه قد تمكن فعلا من أن يكون سيد نفسه ، ولم تستطع شهوات الإنسان العادية ، ولم يستطع هواه الجامح أن يتحكم فيه ، فيذله ويستعبده .

العزة معناها إذن انتصار الباقى على الفانى ، انتصار الخير على الهوى والشهوة ، انتصار ما لله على النفس . والمؤمن العزيز هو المؤمن القوى ، وهو « خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » .

إن المؤمن العزيز صاحب كرامة أيضاً ، لأنه لا يتبذل ، ولا يستذل . صاحب كرامة لأنه مترفع عن الدنايا ، لا يسأل غيره قضاء حاجة لنفسه من حوائج الدنيا . وهو خير من غيره عند الله والناس جميعاً . عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « **لأن يغدو احدكم فيحطب على ظهره فيتصدق به ، ويستغنى به عن الناس ، خير من أن يسأل رجلا اعطاه أو منعه ذلك ، فان اليد العليا خير من اليد السفلى** » .

تكريم الله للانسان

ويقول الله تعالى جل شأنه « ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا[1] » . فالإنسان فى طبيعته ونشأته مكرم . فاذا استذل وأهين كان فى ذلك من فعله ، وكان فعله عندئذ اعوجاجاً لا قوم فيه . لا يهان ولا يستذل إلا من ضل السعى فى الحياة . ومن ضل سعيه فى الحياة يكون قد آثر الدنيا وشهوات النفس على الأعمال الصالحة الباقية . لا يهان ولا يستذل إلا إذا نسى الله فأنساه هدايته . فإذا

(١) الاسراء : ٧٠ .

كان فى إيثاره للدنيا يحسب أنه يحسن صنعاً : فقد انحرف انحرافاً بعيداً ، وسوف يلقى من الهوان — على الأقل من نفسه أمام غيره — ما يبعده عن أن يكون إنساناً ، وإن بقى فى صورة آدمى . لأنه لا يرى عندئذ إلا الدنيا . ولا يسعى إلا لتحصيل أغراضها ومتعها . ومن وصل أمره إلى هذه الحال أصبح كمن يأكل ولا يشبع . يروى مسلمة عن معاوية رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« انما انا خازن فمن أعطيته عن طيب نفس ، بارك الله له فيه ، ومن أعطيته عن مسألة وشره كان كالذى يأكل ولا يشبع » .

ومن الأفراد أفراد أعزاء كرماء . وهم المؤمنون حقاً . ومن الأفراد أفراد ضعفاء أذلاء وهم الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم . والجماعة العزيزة الكريمة هى التى يكون أفرادها أعزاء أقوياء كرماء . والجماعة الضعيفة هى التى يكون أفرادها ضعفاء أذلاء .

من معانى العزة

والقرآن لا يريد منكم أيها المسلمون .. كى تصبحوا أعزاء كرماء — أن تتركوا الدنيا ، وما لها ، وجاهها ، وزينتها ، وأن تحرموا أنفسكم من متعها . وإنما يريد منكم أن تتعففوا عن السؤال : يتعفف صغار النفوس من الموظفين عن الوساطة ، ويتعفف صغار النفوس من أصحاب الأعمال عن تقديم الرشوة ، ويتعفف صغار النفوس من التلاميذ والطلاب عن الغش فى الامتحان ، ويتعفف صغار النفوس من التجار عن التدليس والخداع ، ويتعفف صغار النفوس من العمال عن الاستهتار بالواجبات يريد منكم أن تكون كفايتكم ، وإيمانكم بأنفسكم ومجتمعكم هى وسائل تعففكم عن الدنيا .

يريد منكم ألا تطغى عليكم الدنيا فتأكلوا أموال اليتامى . « وآتُوا اليَتَامى أموالهم ، ولا تَتَبَدَّلوا الخَبِيثَ بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهمْ إلى أموالكم ؛ إنهُ كانَ حُوباً كبيراً(١) » .

---

(١) النســاء : ٢ .

يريد منكم ما يريده الله فى قوله «يَأَيُّها الذِينَ آمَنُوا لا تَأكُلُوا أموالَكم بَينَكم بالبَاطِل ، إلا أن تكون تِجَارةً عَنْ تَراضٍ مِنكم ، وَلا تَقتُلوا أنفُسَكم ، إن الله كانَ بِكم رحيماً[1] » .

وليست العزة والكرامة استماعاً لعظة ، وحماساً مؤقتاً لما يقال . إنما هى عادة وتنشئة ، بعد التبصير بهداية الله .

التربية والمسؤولية عنها

والبيت مسؤول عن دفع الأولاد للسؤال والإلحاح فيه .. مسؤول عن وضع الأولاد فى الحياة وضعاً يدفعهم إلى ترجيح تافه الماديات ، عوضاً عن الترفع عنها وتكوين الشعور بالشخصية عندهم .

لو استقامت التربية الأولى ، ولم يُهمل الآباء والأمهات فى الإشراف على أولادهم لوجدوا فيهم أمثلة للتهذيب الكريم ، والعزة والشمم والاباء ، ولأفادوا منهم فى الحياة متعة للروح والنفس ، وزينة وجاهاً فى هذه الدنيا .

والمدرسة مسؤولة لأنها لم تجعل بعد من السلوك الاخلاقى بين التلاميذ موضوع مسابقة واختبار ، وبقيت للمعرفة دون التهذيب .

والمجتمع مسؤول لبخس تقديره الأعزاء والكرماء ، واحتضانه للمنافقين الأدنياء .

والفرق بين كريم النفس وعزيزها من جانب ، وبين دنىء النفس وضعيفها من جانب آخر — أن الأول لا يعيش لحساب شهوته ، وأن الثانى لا يعيش إلا لحسابها .. الفرق أن الأول يتمتع بمعنى السيادة .. وأن الثانى يتلذذ بنفاق العبيد وحركة الأذلاء .

قد تصيب الدنيا دنىء النفوس وضعيفها . قبل أن تصيب كريم النفس وعزيزها . ذاك لأن الدنيا تنافق . ولكن العزة لله جميعاً لا يهبها إلا لعباده المؤمنين الذين لا تستعبدهم شهواتهم : « مَنْ كانَ يُريدُ العِزَّةَ فَلِلهِ العِزَّةُ جميعاً . إليهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيبُ . والعَمَلُ الصَّالِحُ يرفعُهُ[2] » . .

---

(١) النســاء : ٢٩ . (٢) فاطر : ١٠

فضيلة الصبر وأثرها فى حياة الفرد والجماعة

عن أبى سعيد رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « **ما اعطى احد عطاء خيراً واوسع من الصبر** » .

١ — الإنسان فى هذه الحياة لابد أن يتخذ موقفاً معيناً : مرة من نفسه ومرة ثانية من الآخرين . فبحكم أن له هوى وشهوة وأن له مع ذلك عقلا نيط به التكليف الإلهى ووجب عليه من أجله أن يطيع ما أمره به الله ويتجنب ماتهى عنه — كان موقفه من شهوته ومن عقله أن يروض نفسه على عدم الانسياق فيما تدفعه إليه غرائزه وشهواته ، وعلى الوقوف بجانب العقل والرسالة الإلهية . وهو لاينجح فى هذا الموقف إلا إذا تحمل ألم الحرمان وفوت على نفسه متع النفس الشهوية ورغبات غرائزه . وترويض النفس على تحمل الألم والحرمان من المتع هو مايعرف بالصبر والجلد . وفى هذا الموقف إذا لم يستعن الإنسان بالصبر لم يستطع أن يقى نفسه شر الاسترسال فى شهوته ، وجاب على نفسه بعد ذلك غضب الله فى مخالفته ما أمر به ونهى عنه .

وموقف آخر يتحتم على الإنسان فى حياته أن يقفه من الآخرين ، وهو موقف مردد بين أن يعيش فى الوجود لنفسه خاصة وبين أن يكون لنفسه والآخرين معه فى جماعته . ولكن حسب ماجاءت به الرسالة الإلهية ووفق طبيعة نفسه يتحتم على الإنسان أن يعيش لنفسه ولغيره ، لاعلى نحو من المشاركة فقط . بل على نحو يصير فيه الحال بينه وبين غيره إلى حال الأخوة والمساندة . ولهذا لا يستطيع أن يؤدى مايجب عليه هنا اتباعاً لوصايا الدين وتمشياً مع طبيعة الحياة الإنسانية نفسها إلا إذا تحمل فى ذلك المكاره . وهى لاتعرض له إلا إذا رعى مصالح غيره . لأن فى رعايته لهذه المصالح حرماناً لنفسه من بعض المتع والرغبات . والسبيل إلى ذلك

هو الصبر وترويض النفس عليه .

٢ — والجماعة الإنسانية نفسها لها هذان الموقفان : موقف داخلي يقفه الأفراد مجتمعين من أمتهم ، وموقف خارجي تقفه الأمة كتلة واحدة من أمة أو أمم أخرى .

فقد تحل بالأمة مثلا أزمة اقتصادية بسبب نقص فى الأموال أو الثمرات تفرض عليها لونا معيناً من العيش وهو التنازل عن شيء من حياة المترفين وتعويد الأفراد على ضرب من التقشف والحرمان مما تشتهيه الأنفس — وهى لاتشتهى غالباً مافيه خيرها وصلاحها — وهنا يدور الحال بين أمرين لاثالث لهما : إما أن يلتزم أفراد الأمة : جادة التقشف بحرمان أنفسهم قليلا مما ألفوا وتنجو بذلك الأمة وتعود من جديد إلى حياة أوسع رفاهية وأعلى مستوى بعد حين ، أو تشتد الأزمة وتأخذ سبيلها فى تفريق الجماعة وإضعاف مستواها فى العيش والحياة حتى لدى أولئك الذين يظنون أنهم بمأمن من آثارها بسبب سعة فى المال أو اعتماد على مصادر أخرى من مصادر العيش .

وأيضا قد تضطر الأمة إلى أن تسلك مسلكا خاصاً تجاه الأحداث التى توجه إليها من بعض الأمم الأخرى . فقد تضغط بعض الأمم الكبرى على أمة صغيرة لتنال منها ميزات سياسية أو اقتصادية وتحاول فى سبيل الحصول على ذلك إيجاد أزمات من ألوان مختلفة داخل هذه الأمة الصغيرة . وهذه الأمة الصغيرة إزاء ذلك إما أن تجيب الأمة الكبرى لما تطلب ويضيع بذلك استقلالها ويسيطر على اقتصادياتها غير أبنائها ، أو تتحدى هذه الأزمات بوقوفها متماسكة فى وجه ماتطلب الدولة الكبرى ، والسلوك فى عيشتها مسلك المتحملين الأذى والمكاره ، مسلك الصابرين المتجلدين . ومهما كان شأن هذه الأزمات عندئذ فإن حدتها وقوتها لايتماسك مطلقاً أمام صلابة الأمة وإرادتها .

والإنسان إذا عرف أن حياته ليست طريقاً واحداً ، وأن طريقه فى الحياة ليس ممهداً على الدوام ، بل فيه استقامة وانحناءات وفيه ميسر سهل وعسير شاق ، عرف أن الشاق فى طريقه لايجتازه إلا بالصبر وتحمل الأذى فى اجتيازه .

والأمة إذا عرفت أنها لاتعيش وحدها ، وإنما تعيش مع غيرها من أمم الأرض ، وقد يكون مذاق هذا الاحتكاك مراً لديها — عرفت أنه لكى تنجح لابد لها من الصبر وتحمل مرارة الاحتكاك ونتائجه .

والله سبحانه وتعالى قد عرض فى بعض آيات القرآن الكريم لبعض الأحداث التى تنزل بالجماعة والتى من شأنها أن تزعزع كيان الجماعة لولا التغلب عليها بالتحمل والصبر . ولذا بشر الصابرين عليها وأطلق فى بشارته إيماء إلى أن جزاء صبرهم كما يكون فى الآخرة سيتحقق فى الدنيا :

يقول جل شأنه : « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين (١) » .

---

(١) البقرة : ١٥٥ .

الصبر عند الشدة

« عن أبي يحيى صهيب بن سنان رضى الله عنه : قال : قال رسول الله ﷺ « **عجباً لأمر المؤمن ! ان امره كله له خير . وليس ذلك لاحد الا للمؤمن . ان اصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وان اصابته ضراء صبر فكان خيراً له** » .

١ — إن الإنسان لو ترك وطبيعته ، يسير فى طريقها دون أن يلزم نفسه بتوجيه معين — لسار حتما إلى غاية لايختلف عنها أبداً ، وهى أن يكون أنانياً ، يحب ذاته . ويعمل لنفسه ، ويتصور الوجود كله وقفاً عليه ، والحياة خاصة به . لاتحد أمانيه وأطماعه ، ولا نهاية لرغباته . إن حصل على شىء منها أمسك به عن غيره ، وإن قدر وفاته الحصول عليه ، أو قدر وخرج من يده هذا الشىء لأمر ما : ثار وغضب وقلق واضطرب .

ذاك لأنه فى رأيه وتصوره : مركز هذه الحياة يجب أن يدور كل مافيها حول نفسه ، وأن يكون له وحده دون غيره . ونتيجة هذا التصوير أن لايعترف بمن عداه فى الوجود ، وأن لايقر له حقاً فى العيش والحياة .

ثم أثر ذلك على الشخص الأنانى الذى استسلم لميوله ونزواته ، وانقاد لطبيعته ، بدل أن يكون مهيمناً عليها وقائداً لها — أثر ذلك هو الخوف الأبدى من أن يفلت شىء مما فى يده ، والحزن الشديد على مافاته من أعراض الدنيا ، والخصومة العنيفة الدائمة بينه وبين غيره على امتلاك متع هذه الحياة . وليس مدعاة لقلق الإنسان فى عيشته من أن تسيطر عليه هذه العوامل الثلاثة : الخوف — والحزن — والنزاع .

والجماعة التى تتكون من أفراد لهم هذا الاتجاه فى الحياة — هى فى واقع الأمر

جماعة غير قائمة . لأن الأساس فى وجود جماعة ما : قيام روح المشاركة بين الأفراد . وهـذه الروح لاتوجد بينهم إلا حيث تضعف الأنانية فى نفوسهم ، ولا تضعف الأنانية فى نفوسهم إلا إذا أخذوا أنفسهم بتوجيه خاص يغالب نزعاتهم وميولهم ، ويتحكم فى تصرفاتهم وأفعالهم ، ويقودهم إلى خير أنفسهم وجماعتهم وأممهم .

٢ — والتوجيه السليم للبشرية ، المنزه عن النقص ، الموصل حتما إلى الخير — هو توجيه الرسالة الإلهية . وأساس هذا التوجيه الإيمان بالله .

والإيمان بالله ليس كلمة ينطق بها المؤمن ، إنما هو التزام خاص أمام الله سبحانه وتعالى ، وعهد يعطيه الإنسان على نفسه لله جل وعلا : ومجمل هذا العهد أن لايكون أنانيا ، وأن يعيش لنفسه ولغيره ، وأن يقر بأن له وعليه واجبات : له واجبات وحقوق بقدر مايبذل من نفسه فى سبيل غيره من معاشريه ، وفى سبيل جماعته العامة . وعليه واجبات بقدر مايعد بها نفسه اعداداً يجعلها تبذل عن رضا ، وتعرف فى وضوح إنها ليست وحدها فى هذه الحياة ، وأن مشاركيها لهم قبلها حقوق يتعين أداؤها .

والمؤمنون بالله إذن هم أولئكم الذين لم يذعنوا لنداء الطبيعة الإنسانية الفجة . فلم يعيشوا لأنفسهم وحدهم ولم يسعوا فى الحياة لتحقيق مآربهم الذاتية الخاصة .

والمؤمن بالله عندئذ إنسان أمن على نفسه : الخوف ، وحال بينها وبين الهم والحزن ، وجنبها الخصومة والنزاع والبغضاء . هو المطمئن فى سعيه لأنه يقصد وجه الله فيما يسعى ، وهو الناجح فى هذه الدار لأنه استطاع أن يتغلب على نزوات نفسه وشهواته ، وهو الناجح فى الدار الآخرة ، لأن الله لايخلف وعده .

وقد وضح القرآن الكريم هذين الحالين للإنسان : حاله إذا انقاد لطبيعته الأولى ، وحاله الثانية إذا أخذ نفسه بتوجيه الله جل جلاله : يقول سبحانه وتعالى : « إنَّ الانسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ، إذَا مَسَّهُ الشر جَزُوعًا . وإذَا مَسَّه الخير مَنُوعا ،

إلا المصَلِّين . الذين هم على صَلاتِهم دائمون . والذين في أموالِهم حقٌ معلوم . للسائل والمحروم ، والذين يُصَدِّقون بيوم الدِّين . والذين هُم من عذاب ربِّهم مشْفِقُون [1] » .

وعبر الله سبحانه عن المؤمنين ، وهم من يفترقون عن أولئكم الذين يستسلمون لطبائعهم ، بالمصلين الذين هم على صلاتهم دائمون والذين يرون أن فى أموالهم حقاً معلوماً لغيرهم من المحرومين والذين يصدقون بيوم الآخرة ـ عبر عن إيمانهم بهذه الصفات إشارة إلى أن هذه الصفات هى التى تعبر حقاً عن إيمان المؤمن ، وهى التى تفرق بين المؤمن فى السلوك ، وبين ذلك الذى بقى مرتبطاً فى تصرفاته بما تمليه عليه طبيعته وغرائزه وحدها .

٣ — ورسول الله ﷺ فيما يحدثنا به الآن صهيب بن سنان رضى الله عنه ـ يريد أن يصور فى إجمال حال المؤمن . وهى حال خير كلها ، سواء فى سرائه أو ضرائه : لأنه إن نال مايسره فى حياته شكر الله على نعمته ، وإن أصابه مايتضرر ويتوجع به صبر على ماأصابه . وشكر الله على نعمته خير ، وصبر الإنسان على مايبتلى به فى هذه الدنيا خير وأى خير : « وَلَنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين [2] » .

والخير فى حال الشكر على النعمة آت من أن الشاكر لم تستهوه النعمة ولم تحل بينه وبين الرجوع إلى الله . وذلك شأن المؤمن يفترق عن الإنسان المسترسل فى سيره وفق طبيعته الأولى ، وهو ذلك الذى يطغى أن رآه استغنى .

والخير فى حال الصبر على البأساء والضراء آت من أن الصبر لا يحققه إلا مؤمن ولا يلتزمه عند المحنة إلا من اعترف بالله . إذ الطبيعة الانسانية كما هى : توحى بالهلع والجزع فى الشدائد : « إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا» [3] .

---

(١) المعارج : ١٦ ــ ٢٦ . (٢) محمد : ٣١ .

إن الخير والإيمان متلازمان.. والشكر على النعمة والصبر فى المحنة طرفا الإيمان بالله تعالى .

فمن كان مؤمناً فليكن شاكراً صابراً ، ومن يرد الخير فليكن مؤمناً ، ومن يسع إلى السعادة والطمأنينة فليخالف هواه ، وينزل عن بعض رغباته ، وما تدعوه إليه نفسه وأنانيته .

والجماعة لاتكون جماعة إلا إذا آمن أفرادها بالله . وآية إيمانهم بالله اعتراف بعضهم قبل بعض بالمشاركة فى الحياة . وأمارة اعترافهم بالمشاركة فى الحياة : التضامن وتحمل المحن والشدائد فى سبيل جماعتهم . وربح ذلك أخيراً عائد إليهم كأفراد ، إذ ليست الجماعة إلا أفراداً مشتركين فى هدف وغاية .

إن حيوية الأمة تقاس بصبرها وجلدها عند الأزمات والمحن ، وإن حيوية الأفراد تقاس بالشعور بوطنهم وجماعتهم . وأخيراً الإيمان بالله : فى الشكر عند المسرة ، والصبر عند المحنة . والمسرة والمحنة كما يكونان للأفراد يكونان للجماعة .

الصراحة والصدق

١ — عن أبى هريرة رضى الله عنه — فى رواية أبى داود والحاكم — أن النبى ﷺ قال : « **من افتى بغير علم كان اثمه على من افتاه ، ومن اشار على اخيه بامر يعلم ان الرشد فى غيره فقد خانه** » .

٢ — وروى عن عبد الله رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « **عليكم بالصدق فان الصدق يهدى الى البر ، وان البر يهدى الى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا . واياكم والكذب فان الكذب يهدى الى الفجور ، وان الفجور يهدى الى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا** » .

* * *

فى الحديث الأول يعتبر الرسول عليه الصلاة والسلام أن من الخيانة عدم الصراحة فى المشورة ، وعدم الإخلاص فى النصيحة . فالذى يرشد غيره ويعلم أن الهداية والرشد فى غير ما أرشد به فقد خدعه وأضله . وعندما يخدعه ويضله قد آذاه. وهو بذلك لا يحب لغيره ما يحب لنفسه . وهو لهذا أيضاً خان العهد الذى بينه وبين كل مسلم آخر ، وهو أن يعمل بما يجب المسلم على المسلم . يروى أبو هريرة رضى الله عنه ان النبى ﷺ قال: حق المسلم على المسلم ست ، قيل ما هن يارسول الله قال : « إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله فشمته ، وإذا مرض فعده ، وإذا مات فاتبعه » . فجعل من حق المسلم على المسلم النصح لمن يطلب النصيحة. ولا يكون الأمر نصحاً إلا إذا صدر عن إخلاص واعتقاد بأن فيه الهداية والرشد . فالصراحة صفة مطلوبة ، وفضيلة يتخلق بها .

وفى الحديث الثانى حث الرسول الكريم على الصدق وأوضح أنه سبيل البر

والخير والإحسان فى الحياة الدنيا ، سواء أكان للإنسان الصادق أو لمن يتعامل معه ويتصل به ، ثم فى النهاية هو الطريق الموصل إلى الجنة وثواب الله فى الآخرة. كما حذر من الكذب لانه من المهلكات : فهو موصل إلى الفجور والموبقات والتصرفات المرذولة فى هذه الحياة ، ثم هو بعد ذلك سبيل إلى النار والبعد عن رضا الله وثوابه .

سبيل الصراحة الشجاعة فى ابداء الرأى :

والصراحة والصدق صفتان تعتمدان على الشجاعة . ولا يتصف بهما إلا شجاع . والصراحة تعتمد على الشجاعة فى إبداء الرأى والنصح ، والصدق يعتمد عليها فى التعبير عن الحق والواقع . ولذا طلب الإسلام من الإنسان أن يكون فى حياته صريحاً وصادقاً ، يطلب منه فى واقع الأمر أن يكون شجاعاً فى إبداء رأيه ونصحه ، وفى التعبير عما يعتقد أنه حق وواقع .

وبهذا ينتفى الخداع فى قوله : لأن الخداع إنما يكون عندما يكتم النصح أو يدلس فيه ، وعندما يلبّس فى التعبير عن الحق ويزور فى حقيقة الواقع .

الصدق والصراحة كلتاهما إذن يتمم عدم خداع الغير ، وكلتاهما يبعد الزيف فى العلاقة بين الإنسان والإنسان ، وفى توجيه الإنسان للإنسان .

كلتاهما ركن أساسى فى تكوين شخصية الإنسان . لأنه لا يتصف بهما إنسان إلا بعد أن يمر بامتحان دقيق فى إرادته وإيمانه بالله ثم بنفسه وبالقيم ، وإلا بد أن ينتصر على التردد والتأرجح بين دافع الإعلان عن الرأى لمقتضى الحق فى ذاته ، وبين كتمانه خشية إغضاب الغير ، أو خشية أن تفوت مصلحة شخصية له عند هذا الغير .

الصراحة والصدق كلتاهما عنوان على أن صاحبهما منتج فى الحياة ، ويعتمد عليه فى الأزمات ، ويثق به ويركن إليه . إن صفة الصراحة أكثر من الإخلاص ،

هى جرأة واخلاص معاً ، وإن صفة الصدق أكثر من التعبير عن الواقع ، هى جرأة ، واحتضان للحق ، واتباع له ، وتعبير عنه .

ولا تكون هناك صراحة ، ولا يكون هناك صدق إلا لمن له شخصية . فهما يسهمان فى تكوين شخصية الإنسان، وفى الوقت نفسه يعبران عن هذه الشخصية.

إن الصدق يهدى إلى البر ، والبر هو الإحسان والحق . ذاك لأن الصادق قد أبعد عنصر الضعف فيه ، وهو الجبن والخور والنفاق . والصراحة فى إبداء الرأى والمشورة صفة المسلم ، لأن الصريح قد سلم المسلمون من لسانه فيما يعبر ، ومن نيته فيما يضمر ، فهو خالص النية صريح القول .

الخداع والجبن امارة النفاق :

وعلى الضد من صفتى الصراحة والصدق صفة النفاق . فالنفاق يبعد صاحبه عن أن يكون ذا شخصية ، وهو أمارة على ضعفه . المنافق يعرف الحق ويكتمه. وإذا سئل عنه أجاب بشىء آخر يغاير مايعرفه ، إن كان فى ذلك ما يحقق مصلحة خاصة له ، أو يدفع مضرة عنه .

المنافق خطر على المجتمع، ومع ذلك لاشخصية له . وضعفه هو سبب خطورته فى المجتمع الذى يعيش فيه . لأنه يستمد من هذا الضعف طواعيته لكل رأى ، وكل جهة ، وكل حال ، وكل عهد . عن ابن عمر رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال فى تصوير المنافق : « **مثل المنافق كمثل الشاة العائرة(١) بين الغنمين** ».

وفى واقع الأمر ، المنافق لا يعتقد بما يعلن طاعته له ويذعن إليه، فيما يتحدث أو فيما يتصرف . خطورته فى أن غيره يأمن جانبه فى وقت هو غير مأمون الجانب فيه ، يعتمد عليه فى وقت لا يعتمد عليه فيه ، يختفى عند الأزمات ، ويكثر تردده وتنشط حركاته فى الرخاء .

---

(١) العائرة : المترددة . تعير : تردد الى هذه مرة والى هذه مرة .

خطورة المنافق ليست فى أن ذاته خطرة ، أو لأن ذاته قوية ، بل لأن غيره ينخدع فيه . ولخطورة المنافق فى خداع غيره والتغرير به يقول الله تعالى فى شأن المنافقين : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ، وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا[1] » .

المنافق يلبس ثوب الصديق وهو عدو ، وثوب المشير الناصح ، وهو خادع مغرر ، وثوب المضحى فى سبيل الغير وهو نفعى أنانى ينتزع منفعته الخاصة من حطام من تظاهر له بالصدق ، والإخلاص فى المشورة ، والتضحية من أجله . « آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد اخلف ، وإذا اؤتمن خان » .

* * *

الصراحة والصدق فى الإنسان كفيلان بنفى النفاق عنه . لأنه فى صراحته قد أدى أمانته ولم يخنها ، وفى صدقه لم يكذب فيما تحدث به .

الصراحة والصدق فى الإنسان تجعله مأمون الجانب ، قوياً يركن إليه ، لأنه لا يعرف الخداع ، ولا الزيف ، ولا التدليس .

ولكن كيف يكون الإنسان صريحاً صادقاً ؟ يكون صريحاً صادقاً بأن يعتقد أن نجاة الإنسان وسعادته فى الصراحة والصدق . وبأن يدرب نفسه على الصراحة فيما يؤخذ رأيه فيه كما لو كان مشيراً لنفسه ، ويعود نفسه الصدق فيما يقول ويتحدث ولو أغضب غيره أو نفسه ، ثم أخيراً بأن يكون فى صراحته وصدقه قدوة واضحة لأولاده وأهله ، وإلا لاقى من ألم النفس وعنتها — بسبب كذب الأولاد والأهل ، وكتمانهم ما يعرفونه ويرونه — ما يجعله يشقى وهو حى ، حتى انه ليتمنى الموت كى يخلص من شقوته وآلامه .

---

(١) النساء : ١٤٥ .